الكلمة القرآنية

وأثرها في الدراسات اللغوية

بقلم

الدكتور فضل حسن عباس

أستاذ مشارك في كلية الشريعة

الجامعة الأردنية

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة
العدد الرابع ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . .

أما بعد .

فيسرني أن أتقدم بهذا البحث « الكلمة القرآنية وأثرها في الدراسات اللغوية » ، سائلاً المولى أن ينفع به ، ويأجر عليه .

وقد رتبته على : تمهيد وفصول ثلاثة .

تحدثت في التمهيد عن الكلمة القرآنية في اللغة العربية ، وخصائصها ، وأثرها وما أحيطت به من جهود مشكورة .

أما الفصول الثلاثة فلقد تناولت في الأول منها جانب اللفظ ، وتناولت في الثاني جانب المعنى ، أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن الصيغة . وهي فصول متصل بعضها ببعض .

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه ، إنه سميع قريب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

تمهيد « أثر القرآن الكريم في اللغة العربية » :

لقد كرم الله هذه العربية بهذا القرآن (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) ، ومن أجل ذلك كانت العربية تتمتع بخصائص ، قل أن توجد في غيرها من اللغات ، وهذه الخصائص لا تظهر في وجهة واحدة من جهات العربية ، بل هي في جهات كثيرة متعددة ، فهناك الخصائص التي تمتاز بها الحروف العربية ، من سعة في المخرج ، وتعدد في هذه المخارج ، حتى لا يطغى بعض هذه الحروف على بعض ، وهناك خصائص للكلمات تظهر في سهولة النطق من جهة ، وفيما بين هذه الكلمات من وشائج وصلات من جهة ثانية ، وفيما بينها وبين المعنى الذي تدل عليه من مناسبة من جهة ثالثة .

أما التراكيب العربية ، فإن من أبهى خصائصها هذا الإيجاز ، الذي يجمع المنصفون(١)على أنه مما تمتاز به هذه اللغة على غيرها من اللغات ، وهذا الإيجاز لابد له من الدقة والإحكام ، وتلك لعمر الحق صفات العربية الجوهرية الأولى .

وهذه الميزات للعربية جوهرية تنبع من ذاتها ، رئيسة لا تخرج عن أصالتها ، ومع هذه الخصائص الأصيلة الرئيسة ، فإن هناك خصائص مكتسبة ، أكتسبتها العربية من ذلكم الكتاب الذي خصها الله به وخصه بها ، هذه الخصائص التي لا تقل عن الميزات الأولى ، وإن ما أفادته العربية من كتاب الله تعالى لا ينحصر في زاوية واحدة ، ولا ينحسر في جدول واحد .

١ - فلقد كان لهذا القرآن الكريم الفضل في أنه جمع العرب على لغة واحدة ، بعد أن كان لكل قبيلة منهم لهجتها ولغتها ، وقد أجتمعوا فيها بعد على القرآن ، وكان من نتيجة ذلك أن حفظ القرآن لهم هذه اللغة ، دون أن تتشعب بها الأودية أو تختلف بها الألسن ، كما أنها حافظت بفضل هذا القرآن على أصالتها ، وهذا لو تأملته لوجدته من أعظم ما أسداه القرآن العظيم إلى هذه اللغة .

---

(١) أحمد حسن الزيات - دفاع عن البلاغة ص ١٠٣ - عالم الكتب - الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧ .

٢ - ومن أوجه تأثير القرآن في اللغة ، هذه الأساليب البديعة والتراكيب الرصينة ، التي كان لها فيها بعد الأثر في تطور النقد ، ورقي الأساليب العربية ، فأنت إذا تأملت مواطن إيجازه ، ورائق مضامينه ، ودقة معانيه ، والأساليب التي عبر بها عن ذلك مما يلجه العرب وإن وقفوا في بعضه على بعض أبوابه ، وجدت من ذلك الكثير الكثير ، تجد هذا في أساليب الاستفهام وأنواعه ، والكنايات وأقسامها ، وإنك واجد ذلك كذلك في جدله وقصصه ، ووعده ووعيده .

ولا تعدو الحقيقة حينما تزعم أن ما وصل إليه فيما بعد من أبحاث لغوية على تنوعها ، يرجع الفضل فيها لهذا القرآن ، ليس هذا فحسب ، بل إن القرآن هذب طباعهم ، وثقف ألسنتهم ، حتى إنك لتشعر بتلك النقلة العظيمة بين الذي كان لهم قبل القرآن الكريم ، وبين الذي كان لهم بعد نزوله ، يقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لبيان إن حصول الملكة بكثرة الحفظ « ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر سر آخر ، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذوقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذى الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة ابن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاورتهم ، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة ، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليها لكونها ولجت في قلوبهم . ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم ، وأرتفعت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك ، وأرصف مبنى وأعدل

تثقيفاً بما أستفادوه من الكلام العالي الطبقة »(١) ، ويقول الرافعي - رحمة الله تعالى : -

« ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام ، وتولى تربية الذوق الموسيقى اللغوية فيهم ، حتى كان من محاسن التركيب في أساليبهم - مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف - مالم يكن مثله للعرب من قبلهم ، حتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسل على جفاء كان فيهما ، إلى سجع وترسل تتعرف في نظمها آثار الوزن والتلحين ، على ما يكون من تفاوتهم في صفة ذلك ومقداره ، ومبلغهم من العلم به ، وتقدمهم في صنعته ، ولولا القرآن ، وهذا الأثر من نظمه العجيب ، لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة ، ولم يبق بعدهم للفحصاء إلا كما بقى من بعد هؤلاء في العامية ، بل لما بقيت اللغة نفسها(٢) .

٣ - ومما منحه القرآن هذه اللغة بحق ، أنه أمدها بماء الحياة والنضارة ، فهي باقية ما بقى القرآن ، لا تموت كما ماتت كثير من اللغات واللهجات ، ولا تهرم كذلك ، بل تبقى نضرة في شبابها ، لا تهرم ولا تبلي .

٤ - ومع هذه الميزات والخصائص التي نذكرها على سبيل الإجمال دون تفصيل ، نجد أن القرآن الكريم قد نقل هذه اللغة الثرية في أساسها ، من جو الصحراء الذي لم يمكنها فيه أن تستغل ثروتها أستغلالاً تاماً إلى مشارق الأرض ، حيث أثبتت قدرتها على التصرف ، وجدارتها بكل ما يعرض لها ويلقي عليها من معارف وأحداث وأكتشافات .

لقد كان العرب يحصرون هذه اللغة الثرية في التعبير ، عما هو حولهم من أمور البداوة ، قضايا الصحراء وأشيائها ، كانوا يستقلون اللغة في ذلك ، ومع

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٧٩٨ ، ٥٨٠ - الطبعة الرابعة - دار أحياء التراث العربي - بيروت / لبنان .

(٢) الرافعي - أعجاز القرآن والبلاغة النبوية - الناشر دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة التاسعة - سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م ص ٢١٥ .

هذا كان بوسع هذه اللغة أن تثبت وثبات قوية سريعة ، لو أنها وجدت أمكانات التصنيع شأنهم وشأنها كالأمم التي تملك ثروات طبيعية ، ولكنها لا تستطيع أستغلالها وأستثمارها ، ولا تحسن ذلك ، فلما جاء القرآن وجدت اللغة فيه ضالتها ، واكتشفت ذاتيتها ، وإذ بها تنتقل من الحديث عن الأطلال والفيافي ، والغربان والحشرات ، والقيصوم والشيح⁽¹⁾ ، لتصبح لغة الدقة في الحياة كلها ، لغة العلم والمصطلحات ، لغة العقل والعاطفة ، لغة الحياة بكل ما فيها من أسرار ، وكما كان فضل الإسلام على العرب ، لولاه لم يكونوا شيئاً يذكر ، وكانت مواطنهم ومواقعهم وبيئتهم سماء من غير أضواء ، وأصواتاً من غير أصداء ، ومساكن من غير أحياء ، كذلك كان فضل القرآن على هذه اللغة رضي من رضي ، وأبى من أبى .

وإذا كانت هذه اللغة قد مرت قبل نزول القرآن بأكثر من طور من أطوار التهذيب ، فلقد كان أعظم هذه الأطوار وآخرها هو ما أفادته من هذا الكتاب⁽²⁾ ، وما على القاريء إلا أن ينظر في بعض آثار العرب قبل هذا الكتاب ، وفي هذا القرآن نظرة واعية ، فإنه يدرك دون جهد هذا العطاء السخي الذي منحه القرآن لهذه اللغة .

الكلمة :

يميز الناس بين الكلام الذي تنشرح له صدورهم ، وبين ما تنقبض منه نفوسهم ، بالطريقة التي يتبعها الكاتب ، والأسلوب الذي يصوغ فيه موضوعه ، الذي يخرجه للناس ، وإذا كان هذا الأسلوب يقوم على دعائم متعددة ، فإن الذي يهمنا - هنا - من هذه الدعائم أولاها وأولاها بالتقدير ، ونعني بها الأصالة ، وأول لبنة في هذه الأصالة الكلمة ، ذلك أن اللفظة الجيدة

---

(١) وذلك هو حال أمتنا اليوم .

(٢) مصطفى صادق الرافعي / تاريخ آداب اللغة العربية / جـ٢ ، من المكتبة التجارية الكبرى مصر ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٣هـ ، سنة ١٩٥٣م .

تدل على المعنى المراد ، ووقوعه في المكان المناسب . يقول ستيفن أولمار :

وفي أي نقد يوجه إلى اللغة تكون الكلمة عرضة لأن ينظر إليها ، على أنها السبب الأساسي في هذا النقد ، وليس ثمة ما يثير الدهشة أو الغرابة في هذه المكانة التي تنفرد بها الكلمات ، فهي أصغر « نوافل » المعنى أو أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل ، أضف إلى ذلك أن الكلمات هي أسماء الأشخاص والأشياء ، وهي أول خطوة يقوم بها الطفل في سبيل تعلم اللغة ، وللكلمات كيان مستقل في الكتابة والطباعة ، وتتمتع بذاتية ومكانة مستقلة في المعجم ، وهي فوق هذا وذاك تخضع في استعمالها لعدد لا يحصى من القيود والعادات الخرافية ، حتى إنّها في كثير من الحالات كانت موضع العبادة والتقديس لهذا كله لم يكن من الغريب أن تنفرد الكلمات باهتمام خاص من نقاد اللغة (١) .

والكلمة أصل الدقة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة ، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصل دلت على المعنى كله ، فإذا حشرت حشراً ، أو قسرت قسراً ، دلت على بعض المعنى أو ألجأت إلى غيره . وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع ، والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة ، والنظام المطلوب ، تحركت الآلة ، وإلا ظلت جامدة .

« وللكلمات أرواح » كما قال (موباسان) ، فإذا استطعت أن تجد الكلمة التي لا غنى عنها ، ولا عوض منها ، ثم وضعتها في الموضع الذي أعد لها ، وهندس عليها ونفخت فيها الروح التي تعيد لها الحياة ، وترسل عليها الضوء ، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبعيه والوضوح ، وأمنت الترادف والتقريب والأعتساف » (٢) .

---

(١) ستيف أولمان / دور الكلمة في اللغة ص ٣ - ترجمة وتعليق د . كمال محمد بشر سنة ١٩٦٢ م .

(٢) الأستاذ أحمد حسن الزيات (١٣٠٢ - ١٣٨٨هـ ، ١٨٨٥ - ١٩٦٨ م) ، مقدمة دفاع عن البلاغة ، مطبعة النهضة ١٩٦٧م .

لا عجب إذن أن نجد العرب في عصورهم الأولى يجهدون أنفسهم في اختيار هذه الكلمات والبحث عنها وأنتقائها مجندين لها ما منحوه من طاقات العقل ودفقات الشعور وجميل الأحاسيس . فلقد كانوا في جاهليتهم ، يدركون ما للكلمة من شأن ، أو ما تحدثه من أثر سلبي فيقبلونها أو يردونها نتيجة معرفة وذوق .

سمع طرفه بن العبد بيت المسيب بن علس :

وقد أتناسى الهم عند أذكاره بناح عليه الصيعرية مكدم

فقال : استنوق الجمل ، لأن الصيعرية : سمة في عنق الناقة لا البعير(١) .

ومن ذلك ما يروي عن حسان حينما أنشد

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً

فقيل له : لو قلت : (يسطعن في الدجي) « ولو قلت : » (يجرين) ، لكان أولى(٢) .

فإذا تجاوزنا العصر الجاهلي وجدنا ذلك واضحاً في العصر الإسلامي من ذلك : ما روى عن أفصح العرب وأبلغهم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يوجه معلماً ، مبيناً لأصحابه - رضوان الله عليهم - ولمن بعدهم مكانة الكلمة وأصالتها : (لا يقل أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست)(٣) .

وكذلك ما روى عنه ، وهو يعلم أحد صحابته ، البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن يقول : (آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت)

---

(١) د . أحمد مطلوب ، د . حسن البصير ، البلاغة والتطبيق - الجمهورية العراقية - وزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي - الطبعة الأولى ١٩٨٢م / ١٤٠٢هـ ص ١١ .

(٢) الأستاذ مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي ، - ١٣٥٦هـ ، ١٨٨١م - تاريخ آداب العرب - ضبطها وصححها : محمد سعيد العريان - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٣م .

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : ٨ / ٥١ ، كتاب الأدب ، باب : لا يقل خبثت نفسي ، عن عائشة رضي الله عنها ، وأخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٧٦٥ - كتاب الألفاظ / باب كراهة قول الإنسان : خبثت نفسي ورقمه ٢٢٥٠ .

فقال البراء : (ورسولك الذي أرسلت) فقال صلى الله عليه وسلم : (ونبيك الذي أرسلت) (١) . وما روى عن سيدنا عمر في قوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) آل عمران : الآية . ١١ ، « لو شاء الله لقال : أنتم ، فكنا كلنا ، ولكن قال : كنتم في خاصة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن صنع مثل صنيعه ، كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٢) .

وفي العصر العباسي ، كان للكلمة منزلتها كذلك ، ومما يروي في ذلك : أن رجلاً أنشد ابن هرمة بيته :

بالله ربك إن دخلت فقل لها　　هذا ابن هرمة قائماً بالباب

فقال للرجل : ما كذا قلت : أكنت أتصدق (أسأل) قال : فماذا ؟ قال : واقفاً ثم قال : ليتك علمت ما بيبن هذين من قدر اللفظ والمعنى (٣) .

والمتتبع لآداب العرب ، ومساجلاتهم في أسواقهم يجد كثيراً من ذلك ، والحق إن الذوق السليم يجد فرقاً شاسعاً بين الكلمة الجيدة وغيرها من الكلمات المجوجة ، وجميل أنقل هنا كلمة أبن الأثير ، قال :

« ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة (الغصن) ولفظة (العسلوج) وبين لفظة (المدامة) ولفظة (الإسفنط) وبين لفظة (السيفل) ولفظة (الخنشليل) وبين لفظة (الأسد) ولفظة (الفدوكس) ، فلا ينبغي أن يخاطب ، ولا يجاب بجواب ، بل يترك وشأنه ، كما قيل : أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعر في رجله » ، وما مثاله في هذا المقام الاكمن يسوي بين صورة زنجية سوداء شوهاء الخلق ذات عين محمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٨/٨٤ ، ٨٥ - كتاب الدعوات ، باب : إذا بات طاهراً ، وأخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ٢٠٨١ ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، حديث رقم : ٢٧١٠ .

(٢) محمد بن جرير أبي يزيد الطبري أبو جعفر (٢٢٤ - ٣١٠هـ ، ٨٣٩ - ٩٢٣م) ، جامع البيان في تفسير القرآن - (٤/٢٩) - المصنفة الكبرى الأميرية ببولاق - مصر .

(٣) الدكتور شوقي ضيف - البلاغة تطور وتاريخ - دار المعارف مصر - الطبعة الثانية - ص ٢٦ .

وشعر قطط كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خد أسيل وطرف كحيل ، وجسم كأنما نظم من أقاح ، وطرة كأنها ليل على صباح »(١) .

وإذا كان هذا في كلام الناس ، فهو في كلام الله المتناهي في البلاغة أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً ، ويقول الإمام ابن عطية - رحمة الله تعالى - :

« وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد ، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثرة ، ويخفي علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب - يؤمئذ - في سلامة الذوق ، وجودة القريحة »(٢) .

وما قاله ابن عطية ، كلام حري بالتقدير ، جدير بالدراسة ، ذلك أن المفردات القرآنية لها خصائص ومميزات ، جمال وقعها ، واتساقها الكامل مع المعنى ، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى » .

فالمفردات القرآنية إذن مفردات مختارة منتفاه ، ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظر في المعاجم اللغوية نجدها زاخرة بالألفاظ الكثيرة ، ولكل مادة ، اشستقاقاتها الكثيرة المتعددة ، وهي من حيث الفصاحة والخفة ليست سواء أولاً ، وقد تدار الكلمات الكثيرة على معنى واحد ثانياً ، أما كتاب الله فيخص كل لفظ بمعنى لا يتعداه .

قال الراغب(٣) : فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها أعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع

---

(١) نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، أبو الفتح ، ضياء الدين المعروف ب (ابن الأثير) الكاتب (٥٥٨ - ٦٣٧هـ ، ١١٦٣ - ١٢٣٩م) .- المثل السائر - طبعة البابي الحلبي سنة ١٩٣٩م جـ١ ص ١٤٩ .

(٢) نعيم الحمصي - فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية - حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق - قدم له الأستاذ محمد بهجة البيطار - مؤسسة الرسالة - بيرون - الطبعة الثانية - ١٤٠٢هـ / ١٩٨٠م - ص ٩٥ . وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) - الأتقان في علوم القرآن شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي - القاهرة - مصر - الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

(٣) أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الاصفهاني (ت ٥٠٢) .

حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنويب بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة »(١) .

ومن هنا كانت المفردات القرآن الكريم قليلة - نسبياً - إذا قيست بتلك المفردات التي ذكرتها المعاجم ، فأكثر ألفاظ القرآن تنتمي لي أصول ثلاثية(٢) ، وقليل من هذه الألفاظ ينتمي إلى أصل غير ثلاثي ، ففي القرآن الكريم ألف وستمائة وأربعون (١٦٤٠) أصلاً ثلاثياً ، يتفرع منها ما يزيد على خمسين ألف لفظه ، وهي تزيد على نسبة ثمان وتسعين بالمئة (٩٨٪) من مفردات القرآن(٣) ، وغير الثلاثي لا يزيد على ثمانمائة لفظة ، وأن نظرة يسيره في لسان العرب ، والقاموس المحيط تجعلنا ندرك أن المفردات القرآنية كانت بمثابة فرائد ودرر إذا قيست بغيرها من المفردات .

وثلاثية المفردات اللغوية بعامة والقرآنية بخاصة ، وهو ما استقرت عليه كلمة العلماء منذ القرون الأولى ، ومن هؤلاء القاضي ابن الباقلاني في إعجاز القرآن ومع هذا وجدنا حديثاً من ينازع في هذه القضية ، يقول الدكتور عبد الرؤوف مخلوف : « أما ما ذهب إليه البافلاني من ثلاثية المفردات في اللغة العربية ، فمسألة تقف منا وقفة متأملة ، وحين ننعم النظر في واقع اللغة العربية نستطيع أن نقول : إن المفردات المكونة من ثلاثة أحرف تكاد تكون قلة في اللسان العربي ، والمتتبع لأية قطعة لغوية - ولتكن مما كتب الباقلاني ذاته ، أو من القرآن الكريم - يشهد بذلك ، فقلة قليلة من المفردات هي التي تأتي على ثلاثة أحرف .

وأما فكرة الثلاثية التي نجدها عند علماء اللغة العربية يرذون الكلمات إلى

---

(١) المفردات في غريب القرآن - تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م ص ٦ المقدمة .

(٢) أي مادة .

(٣) مجلة الدوحة - قطر - سنة ١٩٧٧م .

أصول مكونة من ثلاثة أحرف ، فإنها نشأت لما أرادوا أن يصنعوا المعاجم التي تجمع مفردات اللغة ، واحتاجوا أن يستقرءوها ليضعوا بإزاء كل كلمة معناها . إنهم أفترضوا لكل مجموعة من المشتقات أصلاً هو المصدر أو هو الفعل الماضي مجرداً من الزيادات - على خلاف بينهم في أيهم أولى باعتباره أصلاً - وذلك الأفتراض إنما كان ليتيسر لهم عن طريقة حصر جميع الكلم المستعملة ، والذي ليست في كثرته ولا في جملته على ثلاثة أحرف ، عند الاستخدام والاستعمال .

على أنه ينبغي ألا يغيب عن ذهن الباحث عندما نتكلم في ثلاثية اللغة وعدم ثلاثيتها ، إن ليست اللغة هي هذه الحروف التي نكتبها ، إذ هذه ليست إلا رموزاً للغة ، وحقيقة اللغة إنما هي الأصوات التي تنطق على نحو مخصوص متواضع عليه فتسمع فيدرك السامع معناها أو توضع لها هذه الرموز التي نسميها حروفاً فيراها القاريء ويدرك ما تدل عليه « . . . وعلى هذا التصور يكون القول بثلاثية المفردات في اللغة العربية فيه تسامح ، أو فيه عند التحقيق العلمي ذهاب عن الوجه الصحيح ، إذ العبرة في اللغة بأصواتها وليست بالحروف التي تصورها وترمز لها ، والعبرة فيها بالمستعمل منها والدائر على الألسنة ، وليست بالأصول التي نفترضها أو نرد إليها مستعملها والجاري على ألسنة المتكلمين بها حين نريد جمعها وتدوينها ، فإن ذلك كله مجرد أصطلاح للتيسير »(١) .

إن ما يستدعى العجب ويثير الاستغراب بحق ما يماري فيه الكاتب من ثلاثية أكثر الأصول العربية وهي قضية بدهية ما كان ينبغي أن يماري فيها أحد .

إن كون أكثر الأصول العربية تتكون من ثلاثة أحرف ، أمر يشهد به الحس ، كما يشهد له الواقع ، وهذه بحق من خصائص العربية .

وليست العربية أصواتاً فحسب ، وإن أصحاب المعاجم حينما بنوا معاجمهم على الأصول الثلاثية لم يفترضوا كما قال الكاتب أصولاً سواء كانت هذه الأصول المصادر أم غيرها تتكون منها الكلمات ، وإنما فعلوا ذلك بعد استقراء وٱستقصاء ، فهي حقيقة عقلية لغوية ، وما أبعد الأفتراض عن الحقيقة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥١ - ١٥٣ .

إن الألفاظ العربية منها ألفاظ مجردة ، وهذة أكثرها أصول ثلاثية ، ومنها ألفاظ مزيدة ، وهذه الزيادات تختلف بأختلاف الصيغ التي يريدها المتكلم ، وقد تكون هذه الزيادات في الأفعال أو الأسماء ، وقد يكون للمادة الواحدة من الصيغ ما ينيف على العشرين والثلاثين ، خذ مثلاً فعلاً ماضياً وحاول أن تدخل عليه الحروف المزيدة ، وأن تستقصي المعاني لهذه الحروف ، وستجد نفسك أمام زمر متعددة من الألفاظ والمعاني جمعها أصل واحد ، فلا يمكن لأصحاب المعاجم أن يذكروا هذه الصيغ جميعاً ، لأن من شأن هذا أن يوسع مساحة المعاجم بما لا طائل تحته ، فأمر هذه الصيغ يمكن أن يستخرجه كل باحث ، بل كل طالب علم ، بل هو أمر يكاد يكون مرتكزاً في الطبائع ، وما يقال عن الأفعال ، يقال عن الأسماء كذلك .

أما ما مثل به الكاتب من كلمة « قلم » وقاسه على اللاتينيKalamon » A فلا نقبله منه ، ولا نسلمه له ، ولو أننا وجهنا هذا السؤال لتلميذ صغير : ما هذا ؟ فإنه يقول « قلم » فنحن لا نقف على التنوين في العربية ، وإذا أخذنا كلمتي « أس » و « آسن » في قوله تعالى « فيها أنهار من ماء غير آسن » ، وكلمة « راع » و « راعن » من الرعونة ، فإننا نجد أن اللفظ واحدة ، ولكن مادتي الكلمتين مختلفتان ، فكلمة آس الأولى من الأسى أما الثانية فهي من أسن الماء بمعنى تغير ، وكلمة راع الأولى من رعي ، والثانية من رعن ، ومثل هذا كثير في العربية أتحد الصوت فيه ولكن المعنى يختلف أختلافاً كبيراً ، ليست اللغة - أذن - أصواتاً فحسب .

وأخيراً فلا أود أن استرسل في هذه القضية البدهية ، وإن ما ادعاه الكاتب من التشكيك والمماراة في ثلاثية الأصول العربية ، لا أقول فيه شيء من التسامح ، بل هو ذهاب عن الوجه الصحيح .

عناية العلماء بالدراسات القرآنية :

لقد كانت الدراسات القرآنية بعامة الشغل الشاغل لعلماء الأمة ، فهي خير ميدان يتنافس في المتنافسون حيث كانت حلق العلم في المساجد تجمع بين المعرفة اللغوية وروايات التفسير المأثور ، وما يتصل بذلك من روايات الشعر ، وأحاديث القصاص ، ونقلة الأخبار ، وحتمية التطور أمر لابد منه ، لذلك تشعبت هذه الدراسات القرآنية ، هذه الشعب الثلاث تشمل جهود المفسرين واللغويين وعلماء البيان .

أما المفسرون ، فكانوا يعتمدون على الرواية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو المنقولة عن الصحابة أو التابعين . فما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - يسمونه مرفوعاً ، وما روى عن الصحابة يسمونه موقوفاً ، أما ما روى عن التابعين فهو المقطوع ، وغاية المفسر أن يبين المعنى القريب للآية القرآنية وأن يزيل مايكتنفها من غموض .

أما اللغويون ، فكانت غاية جهدهم لا تقف عند ما يعنيه المفسرون ، فهم يبحثون في الكلمات القرآنية من حيث الأفراد والتركيب ، وهي أبحاث أنتظمتها فيما بعد فروع كثيرة كمتن اللغة والصرف والأشتقاق والأعراب .

أما علماء البيان فهم وإن كانت حاجتهم ماسة إلى اللغويين والمفسرين ، فإن الزاوية التي كانت تشغلهم وتقفهم طويلاً روعة الأسلوب ، وجمال الصورة ، وبراعة اللفظ ، ودقة المعنى ، وهو ما أنتظمه فيما بعد ما سمى علوم البلاغة والنقد .

والذي يعنينا من هذا كله (الكلمة القرآنية) ، فلقد كان من الطبعي أن تحظى قبل غيرها - بكونها الأساس والأصل واللبنه الأولى - بجهد العلماء وعنايتهم ، وأن يقفوا أمامها ليوضحوا مدلولاتها ويكشفوا عما ترشد إليه من معنى أولاً ، وليبينوا صيغتها وأشتقاقها والفصيلة اللغوية التي تنتمي إليها ثانياً ، وليظهروا جمال موقعها وأصالتها في موضعها ، وما لها من حلاوة جرس ، وما تحدثه من إرهاف في الحس ثالثاً .

ولئن كانت هذه الجهات جميعاً تبدو لأول ، وهلة متداخلة لما بينها من وشيجة قربى ، وعظيم صلة ، ولأن بعضها يكمل بعضاً ، فإن لكل منها ميدانه ولونه ومباحثه الخاصة ، وبخاصة بعد أن استقرت الدراسات القرآنية وأصبح لكل علم شخصيته التي تميزه عن غيره .

كانت الجهة الأولى من الجهات الثلاث مهمة المفسرين ، والثانية وظيفة اللغويين ، والثالثة ميدان علماء البيان ، هؤلاء جميعاً جندوا كل طاقاتهم للكلمة القرآنية ، ورغم ما بذلوه من جهده ، وما أولوها من عناية مشكورين فستظل الكلمة القرآنية شمس هداية يشع منها النور لا تفقد من جوهرها ما تفقده الشمس كل يوم .

وإذا كان هذا البحث معنياً بالحديث عن أثر الكلمة القرآنية في الدراسات اللغوية ، فلابد من كلمة عن جهود اللغويين بين يدي فصوله الثلاثة التي أشرنا إليها من قبل .

لما دخل الناس في دين الله أفواجاً ، واختلط العرب بغيرهم ، وكان كثير منهم من غير العرب صارت الحاجة ماسة إلى حفظ القرآن فهرُع كثير من العلماء إلى أخذ هذه اللغة من مظانها ومصادرها ، ولقد كانت المفردات القرآنية من أخطر ما وجه إليها العلماء عنايتهم ، وضربوا لها أكباد الأبل ، بل كانت أيضاً من أول ما حاولوا تمحيصه وتحقيقه والبحث عنه ، وفي ظنى أن ذلك نتيجة عاملين أثنين :-

عامل ذاتي أو داخلي : ونعني به معرفة المعنى القرآني معرفة تزيل الشبه وتمحو الشكوك ، فتفسير القرآن الكريم يحتاج ، بل يتوقف على تحديد مدلول اللفظ .

وأما العامل الآخر ، فهو عامل خارجي : ونعني به ذلك الهجوم الشرس من قبل الشعوبيين على أبنة عدنان لغة القرآن(١) ، ومن أجل ذلك وجدنا العلماء

---

(١) ذلك الهجوم الذي لا يشبهه من حيث العنف والحقد والخروج من الحق إلا ما نجده في أيامنا هذه من حملات ظالمة على هذه اللغة ، والفرق بين الأمس واليوم إن الهجوم في هذه الأيام من أبنائها .

يقفون موقف المدافع المنافح ، وهم يصلون الليل والنهار هاجرين الأهل والديار باحثين في لغة البادية التي لم يتطرق إليها اللحن بعد ، ولم تفسدها العجمة .

وبدهي أن يكون الأعراب - وهم أقل اختلاطاً بغيرهم - أحفظ للغة ، فعندما يفدون إلى سوق المربد والبصرة والكوفة يلتقي بهم العلماء ليأخذوا عنهم ويفيدوا منهم ، وبقى الأمر كذلك حتى إذا اختلط أولئك الأعراب بغيرهم أصبحوا غير معول عليهم .

ظلت - إذن - ثقة الناس بالأعراب ما بقيت لهم صفاتهم التي فطروا عليها ، وطالما كانت ألسنتهم مستمسكة بسليقتها ، ولقد بلغوا في جهودهم على هذه الفطرة مبلغه في أول عهدهم ، فلما طال مكث الأعراب في الحضر ، لانت جلودهم ، وطاعت ألسنتهم بشوائب العجمة ، لاحظ الجاحظ ذلك فقال(١) :

(كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة)(٢) ، لأجل ذلك كان لابد أن يرحل كثير من العلماء إلى البادية ، ليأخذوا عن أهلها الذين لم يختلطوا بغيرهم من الشعوب المتعددة .

وبدأت حركة الجمع والتأليف ، وكانت أول مرحلة من مراحل هذا الجمع تدوين كل ما يسمع من كلمات مهما تعددت موضوعاتها ، وكانت المرحلة الثانية جمع الكلمات التي تتعلق بموضوع واحد ، كأن يجمعوا الكلمات التي تتعلق بالمطر أو بالخيل أو اللبن أو النخل ، وكانت المرحلة الثالثة جمع هذه الموضوعات كلها في معجم واحد .

ولم تقتصر مهمة العلماء على السؤال عن معنى الألفاظ ، بل كانت تتعداها إلى قضايا الأشتقاق والإعراب .

---

(١) البيان والتبين - لعمرو بن بحر بن محبوب الكناني ؟ ت ٢٥٥هـ) طبعة الاستقامة سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م ، وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢م - جـ١ ص ١٧٤ .

(٢) رواية اللغة / الدكتور عبد الحميد الشلقاني مدير الاسكندرية ، الناشر : دار المعارف بمصر - القاهرة - ص ٧٩ .

« فقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف ، فمر أعرابي مُحَرَّمٌ(١) ، فأراد السائل سؤال الاعرابي فقال له أبو عمرو : دعني فأنا ألطف منك بسؤاله وأعرف ، وسأله ، فقال الاعرابي : اشتقاق الأسم من فعل المسمى ، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال : ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعجب ، ألا تراها تمشي العرضنة خيلاً وتكبراً »(٢) .

هذا في الاشتقاق ، أما الأعراب ، فيقول الأصمعي :

« جاء عيسى بن عمر الثقفي ، ونحن عند أبي عمرو بن العلاء ، فقال : يا أبا عمرو : ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيب ألا المسك « بالرفع » ، فقال أبو عمرو : نمت ياأبا عمرو وأدلج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، ثم قال أبو عمرو : قم يايحى - يعني اليزيدي - وأنت ياخلف - يعني خلف الأحمر - فأذهبا إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع ، واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب ، قال : فذهبا فأتيا أبا المهدي وإذا هو يصلي ، وكان به عارض وإذا هو يقول : أخسأناه ، ثم قضى صلاته والتفت إلينا ، وقال : ما خطبكما ؟ قلنا : جئناك نسألك عن شيء ، قال : هاتيا فقلنا : كيف تقول : ليس الطيبُ إلا المسكُ ؟ فقال : أتأمراني بالكذب على كبرة سني فأين الجادِيّ ؟ وأين بنّةُ الابل الصادرة ؟ فقال له : خلف الاحمر : ليس الشرابُ إلا العسلُ ، فقال : فما يصنع سودانُ هجَر ما لهم شرابٌ غيرُ هذا التمر ، قال اليزيدي : فلما رأيت ذلك منه ، قلت له : ليس ملاكُ الأمر إلا طاعةُ اللهِ والعملُ بها ، فقال : هذا كلام لا دخل فيه ، ليس مِلاكُ الأمر إلا طاعةَ الله ، فقال اليزيدي ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ، فقال : ليس هذا لحنى ولا لحنُ قومي ، فكتبنا ما سمعناه منه ، ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلاً يعقلُ ، فقال له

---

(١) أي فصيح لم يخالط الحضر .

(٢) طبقات النحويين واللغويين - أبو بكر الأشبيلي - محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ . ١٩٨٩م) - طبعة السعادة ١٣٧٣ هـ . ص ٣٩ .

خلف : ليس الطيبُ إلا المسكَ ، « بالنصبِ » فلقنَّاه النصبَ وجهدنا فيه ، فلم ينصب وأبي إلا الرفع(١) .

وسنبدأ الحديث عن الفصول الثلاثة التي حددتها من قبل وهي :-

الأول : ما يتعلق باللفظ .

الثاني : بالمعنى .

الثالث : بالصيغة .

وسنجد أن للقرآن الكريم في هذه الدراسات إثراء ونماء ، وغاية وهدفاً .

---

(١) إسماعيل بن القاسم أبو علي القاني - الأمالي - طبعة دار الكتب ١٩٣١ . جـ ص ٣٩ .

الفصل الأول

« **جانب اللفظ** » :

أما جانب اللفظ فنتحدث فيه عن موضعين اثنين متصل كل منهما بصاحبه : الغريب والنوادر ، وهما أول ما بحثه العلماء ودونوه ، يدلنا على ذلك أن أول من كتب في الغريب : أبو عبيدة ، والأصمعي ، والسجستاني ، وابن قتيبة ، وهم من علماء القرنين الثاني والثالث للهجرة ، كذلك النوادر كتب فيها : أبو زيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأبو مسحل الأعرابي .

أما الغريب : فلقد كان له شأن عند العلماء ، يقول الأصمعي : توسلت بالملح ونلت بالغريب(١) ؛ وقد « قالوا إن الأصمعي عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها . . »(٢) .

وذكر صاحب مراتب النحويين عن عبد الصمد بن المعذل(٣) قال : رأيت الأصمعي وقد جاءه الأحمر الكوفي(٤) فألقى عليه مسائل من الغريب ، فجعل يجيبه الأحمر كأنه مجنون من سؤاله وحركته . . . ثم سأله الأصمعي عن بيت فلم يجب . فسأله عن ثان فلم يجبه ، فسأله عن ثالث فلجلج . . . فقال الأحمر ما تعرض لك في اللغة إلا مجنون (٥) .

وقد يتساءل القاريء ، ما معنى ورود الغريب في كتاب الله ، ونحن نعلم أن الغرابة وصف في الكلمة ينافي الإبداع والفصاحة ؟ .

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول :

(١ ، ٢) أبو العباس أحمد بن علي القاقشندي (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م) - صبح الأعشى في صناعة الأقشا جـ٢ ، ص .

(٣) عبد الحميد بن المعذل بن غيلان من شعراء الدولة العباسية بصري المولد والمنشأ وقد روى عنه كثير من اللغة والأخبار وقليل من الحديث .

(٤) هو علي بن الحسن صاحب الكساني (بفية الوعاة ١٥٨/٢) .

(٥) عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغي كان من علماء القرن الرابع النحويين واللغويين . مراتب النحويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٩٠ .

لقد عرفت كلمة الغريب في الصدر الأول ، أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً : (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه) وأخرج مثله عن عمر وأبن عمر وابن مسعود موقوفاً(١) .

وهذا ترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – يقول : « إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »(٢) ، وكان يأمر صاحبه أن يخرج للناس – وقد أجتمعوا على بابه – ليقول لهم : « من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل »(٣) .

والغريب في هذه الآثار يختلف عن الغرابة ، التي ذكرها علماء البلاغة من بعد ، فاللفظة الغريبة عندهم ما كانت غير ظاهرة في معناها ، ولا مأنوسة في استعمالها ، تثقل على السمع ، وينفر منها الطبع »(٤) .

أما الغريب في كتاب الله تبارك وتعالى فهو « الذي إذا سمعه السامع تحفز وتشوق لمعرفة معناه ، وبدهى أن الناس جميعاً ليسوا سواء في معارفهم ، فما يسهل على بعضهم ، نجده يصعب على آخرين ممن هم أوسع ثقافة ، وأكثر علماً .

من هذا ما روى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « ما كنت أدري

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب ، وابن أبي شيبة والحاكم ، قال الحاكم صححه جماعة ولكن الحافظ الذهبي والهيثمي والعراقي أجمعوا على ضعفه ، فيض القدير للمناوي ، جـ١ ، ص ٥٥٨ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٧٢هـ – ١٩٥٢م – جـ١ ص ٢٤ .

(٣) أحمد بن عبد، الله بن أحمد الأصبهاني ، أبو نعيم (٤٣٠هـ – ١٣٠٨م) حلية الأولياء – مطبعة السعادة – ١٩٣٢م – جـ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٤) مصطفى صادق الرافعي – إعجاز القرآن والسنة النبوية – الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت ص ، وانظر الدكتور محمد رجب البيومي – المدرس بكلية اللغة العربية – جامعة القاهرة – البيان القرآني ، السنة الثالثة – الكتاب الواحد و الثلاثين ربيع الثاني ١٣٩١هـ – ١٩٧١م ص ١١٦ وما بعدها – دار النصر للطب .

ما فاطر السموات والأرض حتى جاء أعرابيان يختصمان في بئر ، قال أحدهما : أنا فطرتها »(1) .

وما روى عن سيدنا عمر - رضي الله عنه . وقد سأل وهو على المنبر عن معنى التخوف ، وذلك في كتاب الله في سورة النحل « (أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم)الآية : ٧ .

إذن لابد من وجود الغريب في كتاب الله تبارك وتعالى بمعناه اللغوي ، وهو مالا يستوي في فهمه جميع مستمعيه ، لا بمعناه في مصطلح البلاغيين ، وهذا الغريب ليس كثيراً ، لا كما عده السيوطي(2) - رحمه الله تعالى - ونحن لا نعد، الغرابة تختلف باختلاف العصور ، وإلا كانت الفاظ القرآن جلها غريبة ، وليس الأمر كذلك فمقياس الغرابة إذن هو : ذوق ومعرفة أولئك الذين نزل القرآن فيهم .

أسباب الغرابة :

١ - وإذا تلمسنا أسباب هذه الغرابة فسنجد في مقدمتها ورود كلمات في كتاب الله تعالى من غير لغة قريش ، ولا أقول من غير لغات العرب ، والذي يقرأ كتب التفسير وعلوم القرآن يجد ذلك مبثوثاً فيها على نطاق واسع - نعني لغات القبائل العربية - وقد عقد السيوطي باباً ذكر فيه الكلمات التي جاءت في كتاب الله تعالى من غير لغة قريش ، وكلمة سيدنا عمر رضي الله عنه : « الشعر ديوان العرب » - وهو يرشد إلى فهم ألفاظ القرآن من الشعر - خير دليل على ما ذهبنا إليه ، لأن جل الشعراء لم يكونوا من قريش .

٢ - ومن أسباب الغرابة كذلك نقل الكلمة من معناها اللغوي المتبادر إلى وضع جديد قصد إليه الشارع ، وذلك : كلفظ (الظلم) مثلاً الذي توسع في

---

(١) جلال الدين السيوطي - الاتقان في علوم القرآن جـ١ ص ١٣ .

(٢) جلال الدين السيوطي - الاتقان جـ١ ص ١١٤ .

مدلوله فقصد به الشرك ، وغيره من الألفاظ الكثيرة التي جاءت في كتاب الله تعالى(١) .

٣ - وثمة سبب ثالث ، وهو أن تكون الكلمة قد أستعملت أستعمالاً دلت القرائن على أن المعنى اللغوي لهذه الكلمة غير مقصود ، وذلك ككلمة (مبصرة) في قوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) الاسراء ٥٩ ، فمعنى (مبصرة) غير عمياء ، وما نظن أحداً يقصد هذا المعنى من الآية الكريمة ، وقوله تعالى : ؟ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) القيامة : ١٨ .

٤ - وأخيراً - وليس أخراً - قد ترد الكلمة الغريبة في كتاب الله ، وذلك لغرابة المعنى الذي جاءت من أجله ، مثل كلمة (التناوش) في قوله سبحانه في سورة سبأ ؟ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) الآية ٥٢ ، وكلمة (ضيزي) في قوله تعالى في سورة النجم (تلك إذا قسمة ضيزى) الآية : ٢٢ .

ومن هنا فأن سلاسة الفاظ القرآن ، وعدم غرابتها الغرابة التي تحدث عنها علماء البلاغة ، لم ينازع فيها أحد من الناس ، وهذا يؤيد ما قلته من قبل من أن مقياس الغرابة : هو ذوق ومعرفة أولئك الذين نزل القرآن فيهم .

ونقف ونحن نتحدث عن الغريب أمام كتب ثلاثة ، لا لنتحدث عنها ونحللها ، فذلك ليس من موضوعنا ، ولكن لنلحظ ما في هذه الدراسة المتتابعة من تطور لمفهوم الغريب .

أول هذه الكتب : كتاب أبي عبيدة - مجاز القرآن) ، وهو الذي سماه بعضهم (غريب القرآن) كذلك ، واطلق عليه بعضهم - معاني القرآن) ، وآخرون : (أعراب القرآن) ، وكلها أسماء لمسمى واحد ، والذي يعنينا من

---

(١) جلال الدين السيوطي - المزهر في علوم اللغة وأنواعها - النوع العشرون : الألفاظ الإسلامية جـ١ ص ٢٩٤ - دار الفكر - بيروت - شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته : محمد جاد المولى - علي محمند البجاوي - ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

الكتاب هو ما فيه من الغريب ، أما ما بعد ذلك من موضوعات عرض لها أبو عبيدة فليس لنا الآن فيه شأن .

والكتاب الثاني : (غريب القرآن) للسجستاني ، والثالث : (غريب القرآن) لأبن قتيبة .

والذي يعرض لهذه الكتب الثلاثة بالبحث والنقد يمكنه أن يخلص إلى هذه النتيجة – وهي فيما أرى نتيجة منطقية حتمية ، وخلاصتها أن النظرة للغريب ، كانت تتطور ، وتتسع رقعتها شيئاً فشيئاً ، وأكتفى هنا بنقل ما ذكر ، أبو عبيدة في غريب سورة فاتحة الكتاب ، قال أبو عبيدة(١) :

(الرحمن) مجازه : ذو الرحمه ، و (الرحيم) مجازه : الراحم ، وقد يقدرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد ، وذلك لاتساع الكلام عندهم ، وقد فعلوا مثل ذلك ، فقالوا : ندمان ونديم ، واستشهد لذلك بأبيات من الشعر لا نرى ضرورة لذكرها .

(رب العالمين ؛ : أي المخلوقين ، قال لبيد بن ربيعة : ما إن رأيت ولا سمعت بمثلهم في العالمينا .

وواحدهم : عالم ، قال العجاج : فخندف هامة هذا العالم

(الدين) : الحساب والجزاء ، يقال في المثل « كما تدين تدان »

وقال أبن نفيل :

واعلم وأيقن أن ملكك زائل وأعلم بأن كما تدين تدان

(الصراط) : الطريق ، المنهاج الواضح ، قال :

فصد عن نهج الصراط القاصد .

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا أعوج الموارد مستقيم

والموارد : الطرق ، ما وردت عليه من ماء ، كذلك القري ، وقال :

---

(١) هو معمر بن المثني التيمي ، ولد سنة (١١٠هـ) .

وطئنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط(١)

هذا كل ما ذكره أبو عبيدة عن غريب سورة الفاتحة . أما ما عدا ذلك ، فهو إما من مباحث الإعراب ، أو من مباحث الزيادة التي تستهوي أباً عبيدة دائماً ونجده هنا يقرر زيادة (لا) في قوله تعالى : (ولا الضالين)(٢) .

أما الكتابان الأخران فرقعة الغريب فيهما تتسع ، هذه واحدة ، وأخرى حرية بالتسجيل ، وهي الاستشهاد بكلام العرب الذي وجدناه عند أبي عبيدة ، وهو مالا نجده بهذه الصفة عند الذين جاءوا من بعده .

ثانياً : النوادر ٠ -

ومما هو قريب الصلة بالغريب النوادر ، النوادر : جمع نادرة ، وليست هي الطرفة ، إنما هي ندر من الكلام ، والذي يستقريء ما ذكروه من النوادر يمكنه أن يدرك أن المقصود بالنوادر الفروق الدقيقة بين الكلمات ، والكلام منه الفصيح ، ومنه الشواذ ، والشوادر والنوادر ، ولعل : النوادر أقرب ما تكون إلى جمهرة الكلام الفصيح .

« ولابد إن نسوق هاهنا بعض الأمثلة على النوادر لنقرب المسألة من الأذهان ، جاء في إصلاح المنطق وما كان على (مفعل) و (مفعله) مما استعمل يعتمل به ، فهو مكسور الميم ، نحو ، محرز ومقطع ، ومبضع ، ومسلة ، مخدة ، ومصدعة ، مخلاة ، إلا أحرفاً جاءت بضم الميم والعين ، وهي : مسعط ، وكان القياس مسعط ، ومنخل ومدق ، ومدهن ، مكحلة ومنصل »(٣) .

وما كان على (فعل يفعل) فإن مصدر ، إذا جاء على (مفعل) مفتوح

---

(١) مجاز القرآن : عارضه بأصول وعلق الدكتور محمد فؤاد سزكين - الطبعة الثانية (١٣٩٠ - ١٩٧٠م) مكتبة الخانجي - دار الفكر - جـ١ ص ٢٠ ، ٢٥ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٢٥ .

(٣) الخطيب التبريزي / تهذيب إصلاح المنطق ص ٥٠٦ / تحقيق د . فخر الدين قباوة - دار الأفاق الجديدة بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ - سنة ١٩٨٣م .

العين ، وكذلك الموضع ، مفتوح نحو قولك : دخل يدخل مدخلاً ، وهذا مدخله ، وخرج يخرج مخرجاً ، وهذا مخرجه ، إلا أحرفاً جاءت نوادر بكسر العين ، وهي : مفرق الرأس ، وكان القياس مفرق ، ومطلع ومشرق ومغرب ومسقط ومسكن ، وقد يقال مسكن ، ومنبت ومحشر ، وقد يقال محشر ، ومسجد ومنسك ومجزر ، فإن هذه جاءت على غير القياس ، ومنها ما يقال بالفتح ، ومنها مالا يفتح .

وقد نقل السيوطي في المزهر عن أبن هشام ما يوضح المقصود بالنوادر فقال : « أعلم أنهم يستعملون غالباً وكثيراً ونادراً وقليلاً ومطرداً ، فالمطرد لا يتخلف والغالب أكثر الأشياء ، ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل : دون الكثير ، والنادر : أقل من القليل ، فالعشرون بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالباً ، والخمسة عشر بالنسبة إليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد : نادر ، فعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك »(١) .

يقول الدكتور عزة حسن : إن نظرية ابن هشام في النوادر قائمة على مخالفة ، اللفظ للقياس ، وخروجه عليه ، وهي نظرية صحيحة ثابتة ، تؤكدها الأمثلة الكثيرة المبثوثة في كتب اللغة ، ولكن هذه النظرية على الرغم من ذلك لا تحل لنا مشكلة النوادر ، ولا تعللها تعليلاً تاماً ، لأننا نجد كثيراً من الألفاظ جاءت مخالفة للقياس ، وهي مع ذلك فصيحة مشهورة ، لاتعد من النوادر في حال من الأحوال فينبغي لنا والحالة هذه أن نجد تعليلاً آخر يتمم نظرية ابن هشام ، ويفسر لنا مالم تستطيع أن تفسره »(٢) .

ثم قال « وبعد فهل كانت هذه الألفاظ التي نراها في كتب النوادر والتي أوردها الرواه والعلماء على أنها نوادر ، هل كانت جميعها من النوادر ، خلاف الفصيح حقاً ، ولا يسعنا إلا أن نجيب بالنفي على هذا السؤال ، ونحن نستمد

---

(١) عبد الرحمن السيوطي - المزهر في علوم اللغة وأنواعها - جـ١ ص ٢٣٤ .

(٢) مقدمة كتاب النوادر لابي الأعرابي ص ٢٨ - مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٠هـ - سنة ١٩٦١م .

هذا الجواب من كتب النوادر نفسها ، لأن كثيراً من الألفاظ التي وردت فيه لا يمكن لنا أن نعدها من نوادر اللغة وغريبها في حال من الأحوال بل هي تكاد تكون أفصح من الفصيح .

والسبب في ذلك على ما نرى ، تباين وجهات النظر عند علماء اللغة أنفسهم ، واختلاف معاييرهم في تقدير فصاحة الألفاظ أو غرابتها »ص ٢٢ (١) .

وقد كتب في النوادر كثير من العلماء منهم :

أبو زيد الأنصاري (٢) ، وابن الأعرابي (٣) وأبو عمرو الشيباني (٤) ، وفي جمهرة ابن دريد (٥) ، وغريب أبي عبيدة أبواب معقودة للنوادر .

وقد يتساءل القارىء :-

ما صلة النوادر بالدراسات القرآنية ؟ وكلمات القرآن هي أفصح الكلمات وهو تساؤل مقبول . والجواب عنه سهل ويسير كذلك .

فالذين كتبوا في النوادر تتبعوا الكلمات ، ورأوا ما بينها من فروق فوجدوا أن الكلمات القرآنية جميعاً بعيدة كل البعد عن دائرة النوادر إذا كان المقصود بها الشاذ من القول ، اللهم إلا ما كان من لغتين كلغة الحجازيين والتميميين ، أو ما كان قراءة شاذة ، ولا يشمل هذا بالطبع ماعده بعض العلماء من النوادر وكان - رأياً - خاصاً بهم ، كما روى عن الأصمعي من أنه كان يفرق بين حزن وأحزن ، فيعد حزن فصيح ، وأحزن ليس كذلك وكأنه يعده من النوادر والأمر ليس

---

(١) د. عزة حسن $ مقدمة النوادر ص ٢٢ .

(٢) أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (١١٩ - ٢١٥هـ ٧٣٧ - ٨٣٠م) أحد أئمة الأدب واللغة .

(٣) محمد بن زياد ، المعروف بابن الأعرابي ، أبو عبد الله (١٥٠ - ٢٣١هـ ، ٧٦٧ - ٨٤٥م) رواية ، ناسب ، علامة باللغة .

(٤) اسحق بن مرار الشيباني - بالولاء - أبو عمرو ؟ ٩٤ ؤ٢٠٦هـ ، ٧١٣ - ٨٢١م) لغوي أديب .

(٥) محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، من أزد عمان من قحطان ، أبو بكر ، (٢٢٣ - ٣٢١هـ ، ٨٣٨ - ٩٣٣م) من أئمة اللغة والأدب .

كذلك ، لأن كلتا اللفظتين قراءة متواترة « يحزنك ، ويحزنك » .

فالحديث عن النوادر إذن كان ذا صلة وثيقة بالدراسات القرآنية ، مكملة لما سبقها من دراسة الغريب ، وفي الأمثلة التالية ما يبين ذلك :

فمن أختلاف اللغتين ما نقله السيوطي في المزهر ، قال يونس⁽¹⁾ في نوادره :

« أهـل الحجـاز (يبطِش) ، ووتميم (يبطُش) . تميم (هيهات) وأهل الحجـاز (أيهـات) ، أهـل الحجاز (مِرية) ، وتميم (مُرية) ، أهل الحجاز (الحِجّ) وتميم (الحَجّ) ، أهل الحجاز (تخذت ووخذت) وتميم (اتخذت) ، أهـل الحجاز ؟ رضوان) وتميم ؟ رضوان) ، أهل الحجاز (سل ربك) وتميم (إسأل) أهل الحجاز (ما رأيته منذ يومين ، ومنذ يومان) وتميم ؟ مذ يومين ومذ يومـان) ، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الإعراب ، ويختلفون في (مذ ومنذ) فيجعلها أهل الحجاز (بالنون) وتميم ؟ بلا نون) ، أهل الحجاز) (لاته عن وجهـهِ يَليتـه) وتميم (ألاتـه يُليتـه) ، أهـل الحجاز (قد عرض لفلان شيء تقديره : علم) وتميم ؟ عرض له شيء ، تقديره : ضرب)⁽²⁾ .

وقال أبو محد يحيى بن المبارك اليزيدي في أول نوادره⁽³⁾ .

« أهـل الحجاز (أنا منك براء) وسائر العرب (أنا منك بريء) ، أهل الحجـاز ؟ يخففون : الهَدْي يجعلونه كالرَّمْي) وتميم (يشددونه يقول : الهدِيّ كالعَشِيّ والشقي) أهل الحجاز (تركته بتلك العَدوة وأوطأته عَشوة ولي بك إسوة وقِدوة) وتميم (تضم أوائل الأربعة) أهل الحجاز ؟ لعمري) وتميم (رعملي) ، أهـل الحجاز (الشفع والوَتر - بفتح الواو) وتميم ؟ الوِتر - بكسر الواو) أهل

---

(١) يونس بن حبيب الضبي بالولاء ، أبو عبد الرحمن ، ويعرف بالنحوي ، علامة بالأدب ، وكان أمام نحاة البصرة في عصره ، (ت ١٨٢هـ - ٧٩٨م ؛ .

(٢) السيوطي - المزهر جـ٢ ص ٢٧٥ .

(٣) يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي أبو محمد اليزيدي (١٣٨ - ٢٠٢هـ ، ٧٥٥ - ٨١٨م) عالم بالعربية والأدب .

الحجاز (الوَلاية في الدين والتولي - مفتوح - ، وفي السلطان - مكسور) وتميم : ؟ تكسر الجميع)[1] .

ولم يصل إلينا إلا ثلاثة كتب من كتب النوادر . نوادر أبي زيد الأنصاري ، وهو من البصريين ، ونوادر أبي مسحل الأعرابي[2] وهو من الكوفيين ، والكتاب الثالث لأبي علي القالي ، وهذا الكتاب أقرب إلى كتب الأدب منه إلى ما نحن بصدده .

والناظر في الكتابين الأول والثاني يجد تأكيد ما قلته من قبل ، ففي نوادر أبي مسحل نجد قوله تعالى ؟ إذ تلقونه بألسنتكم) النور : ١٥ ، وفي قراءة لعائشه - رضي الله عنها - (إذ تلقونه ؛ - بفتح التاء وكسر اللاء وضم القاف - من ولق - يلق ، كوعد يعد ، وقوله تعالى (وأدكر بعد أمة) وقراءة العامة ؟ وأدكر بعد أمه) يوسف : ٤٥ وقوله (ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً) يس ٦٢ وقوله ؟ إن المتقين في جنات ونهر) القمر : ٥٤ ، بضم الميم والهاء[3] .

أما أبو زيد فنجده يستشهد بكثير من الآيات الكريمة في نوادره[4] . ثم

---

(١) السيوطي - المزهر جـ٢ ص ٢٧٧ .

(٢) عبد الوهاب بن حريش الأعرابي ، أبو محمد الملقب بأبي مسحل (نحو ١٧٠ - ٢٣٠هـ ، نحو ٧٨٦ - ٨٤٥م) غزير العلم باللغة ، عارف بالنحو والقراءات .

(٣) كتاب النوادر ، عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م) .

(٤) كتاب النوادر في اللغة مع تعاليق عليه ، لمصححه : سعيد الخوري الشرتوني ، اللبناني ، المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين - بيروت ١٨٩٤م . ففي ص ٨ استشهد بقوله تعالى في (تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجراً) المزمل ٢٠ وفي ص ١١ بقوله تعالى (خلصوا نجياً) يوسف ٨٠ ، وقول (ما يكون من نجوى ثلاثة) المجادلة ٧ وص ١٥ بقوله (وأسأل القرية) يوسف ٨٢ ، وص ٢٦ بقوله (شفا جرف هار) التوبة ١٠٩ ، وص ٣٧ بقوله) فليستجيبوا لي) البقرة ١٨٦ ، وص ٣٨ بقوله (يرثون الفردوس) المؤمنون ١١ ، (وظل ممدود) الواقعة ٣٠ و (إن المتقين في ظلال وعيون) المرسلات ٤١ ، وص ٥٧ بقوله ؟ فلا تسمع إلا همسا) طه ١٠٨ ، وص بقوله (فيما نضهم ميثاقهم) المائدة ١٣ ، وص ١٩٠ بقوله (عطاء حساباً) عم ٣٦ ، وص ٢٥٥ بقوله (مدهامتان) الرحم ٦٤ .

تتابعت المؤلفات في هذا الموضوع ، فمنها على سبيل المثال : كتابا (الألفاظ واصلاح المنطق) لأبن السكيت(١) .

ذكر في الكتاب الأول : (الألفاظ) موضوعات متعددة ، وذكر في كل موضوع الألفاظ التي تدل عليه .

وذكر في الكتاب الثاني :- وهو بحق سفر ضخم - الألفاظ المتقاربة في الأوزان ، وما بينها من اتفاق واختلاف في المعنى .

والواقف على هذا الكتاب يجد ابن السكيت استشهد على كثير مما ذكره بآي القرآن الكريم ، ففي باب - فعل وفعل) - بفتح الفاءر وكسرها . باختلاف المعنى يستشهد على ذلك بقوله تعالى ؟ وفي آذاننا وقر) فصلت ٥ وبقوله تعالى ؟ فالحاملات وقراً) الذاريات :٢ وبقوله (إلا بشق الأنفس) النحل :٧ ، وقوله ؟ وفديناه بذبح عظيم) الصافات : ١٠٧ .

وفي باب ؟ فعل ، وفعل) - بكسر الفاء وفتحها - باتفاق معنى يستشهد بقوله ؟ حجراً محجوراً - بكسر الحاء - الفرقان :٥٣ ، (حجراً محجوراً) بفتح الحاء .

وفي باب ؟(فعل) - بفتح الفاء وسكون العين - و (فعل) - بفتح الفاء والعين :

باختلاف معنى ويستشهد بقوله تعالى ؟ إذ نفشت فيه غنم القوم) الأنبياء : ٧٨ ، وقوله تعالى ؟ إنها ترمي بشرر كالقصر) المرسلات : ٣٢ وقوله سبحانه ؟ سلقوكم بألسنة حداد) الأحزاب : ١٩ وقوله (وغدوا على حرد قادرين) القلم : ٢٥ .

وفي باب ؟ فعل وفعل وفعل) - بفتح الفاء وضمها وكسرها وسكون العين - باتفاق معنى يستشهد بقوله تعالى (إن يمسسكم قرح) آل عمران ١٤٠ و (قرح) ، وقوله ؟ حتى يلج الجمل في سم الخياط) الأعراف : ٤٠ .

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت (١٨٦ه - ٢٤٤هـ) وكتابه إصلاح المنطق - شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون - دار المعارف بمصر .

وفي باب (فعل) بفتح الفاء وسكون العين - و (فعل) - بفتح الفاء والعين - من المعتمل ، يستشهد بقوله تعالى ؟ والسماء بنيناها بأيد) الذاريات : ٤٧ وقوله (وأذكر عبدنا داوود ذا الأيد) ص : ١٧ ، إلى غير ذلك .

حتى الأبواب التي لم يستشهد فيها بشيء من القرآن نجد أنه يستند فيما كتبه إلى النص القرآني المحكم ، ففي آخر باب من الكتاب ، وهو باب (فعله) - بضم الفاء وفتح العين - يقول ابن السكيت :-

« وأعلم أنه ما جاء على (فعله) - بضم الفاء وفتح العين - من النعوت فهو في تأويل فاعل ، وما جاء على ؟ فعلة) - ساكنه العين - فهو في معنى مفعول به ، تقول : « هذا رجل ضحكة » كثير الضحك ، ولعبة كثير اللعب ، ولعنة : كثير اللعن للناس ، ورجل هزاة : يهزأ من الناس .

« . . . . . ورجل همزة لمزة : يهمز الناس ويلمزهم ، أي يعيبهم ، قال الشاعر :

تدلي بودي إذا لا قيتني كذباً وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة .

ولم يذكر قوله سبحانه ؟ ويل لكل همزة لمزة)(١) .

ومن هذه الكتب : كتاب (الفصيح) لثعلب(٢) ، ذكر فيه : اللفظ الفصيح ، وقد يكون هذا الفصيح من لغة أو لغتين أو أكثر ، وقد شرح كثير من العلماء هذا الكتاب .

وهذه النهضة اللغوية لا يمكننا أن نستوعب الحديث عنها ، فالمقام لا يسمح من جهة ، ولا يعنينا التفصيل من جهة أخرى ، لكن الدافع لها بحق كان كتاب الله تعالى ، من أجل حفظ ألفاظه ، أو من الاستشهاد بألفاظه على الفصيح الذي ينبغي أن يسجل وينطبق به .

---

(١) اصلاح المنطق : ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٢) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء ، أبو العباس ، المعروف بثعلب (٢٠٠ - ٢٩١هـ ، ٨١٦ - ٩٠٤م) أمام الكوفيين في النحو واللغة .

الفصل الثاني

مدلول اللفظ :

وهو لا يقل شأناً وخطراً عن سابقه ، فمدلول اللفظ حري به أن يوجه إليه العلماء هممهم ذلك أن الألفاظ إنما هي قوالب للمعاني .

من نافلة القول - إذن - أن تكون حرية بالتقدير ، من أجل هذا كان البحث عن هذه المعاني مزامناً مع البحث في الألفاظ ، يدلنا أن الاضداد وما يتصل بها لم تكن متأخرة عن غيرها مما تحدثنا عنه .

وسنتحدث في هذا الفصل عن المشترك بنوعيه ، أعني المشترك اللفظي ، والمشترك المعنوي (المترادف) .

والمشترك اللفظي أن يتحد اللفظ ويتعدد المعنى ، أي أن يشترك أكثر من معنى في كلمة واحدة ، وعلى العكس من ذلك المشترك المعنوي ، فهو أشتراك أكثر من كلمة في معنى واحد . ولقد كان للقرآن الكريم الآثر الكبير في هذين الجانبين من الدراسة ، وقد ظهر ذلك في دراسات علوم الفقه وأصوله فضلاً عما نجد من أثر في التفسير وعلوم القرآن .

والناظر في هذه العلوم جميعها لا يجد عناء في إدراك ما أحدثته هذه المباحث من ثراء علمي ، بل لا أغالي إذا زعمت بأن أثرها قد أمتد إلى أنواع كثيرة من المعارف ، حيث أفادت الدراسات النقدية والبلاغية والنحوية والدراسات الفقهية والكلامية كذلك ، وقد يقال إن وجود المشترك اللفظي ليس أمراً مجمعاً عليه عند العلماء ، ومع صحة هذا القول فإن هذا لا يقلل من شأن هذه القضية فجمهرة العلماء ومن يعتد بهم من ذوى الشأن ، ومن أئمة التفسير والأصولين ، أصول الدين وأصول الفقه ، والفقهاء ، لا يرتابون في وجود المشترك اللفظي ، فهم يعدونها ظاهرة لغوية ، وأقل من القليل هم الذين ماروا في وجود المشترك اللفظي .

إن وجود المشترك اللفظي في اللغة من الأمور المبكرة التي أشار إليها العلماء ، فهذا أبو العميثل عبد الله بن خليد بن سعد (ت ٢٤٠ هـ) يخرج لنا كتاباً فيما أتفق لفظه واختلف معناه ، ومن بعد المبرد محمد بن يزيد نجده يكتب فيما اتفق لفظه واختلف معناه في كتاب الله ، وهو كتيب طبع في المطبعة السلفية للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله .

ولا نكاد نجد كتاباً من كتب التفسير واللغة وغيرهما إلا وفيه إشارات كثيرة مبثوثة ، تتحدث عن المشترك اللفظي يقول الطبري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » (النحل : ٧٢) .

« وأختلف أهل التأويل في المعنيين بالحفدة ، فقال بعضهم هم الأختان ، أختان الرجل على بناته ؟ وقال آخرون هم أعوان الرجل وخدمه ، وقال آخرون هم ولد الرجل وولد ولده ، وقال آخرون هم بنو امرأة الرجل من غيره . . « ثم قال » ولم يكن الله تعالى دل بظاهر تنزيله ولا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولا بحجة عقل على أنه عنى بذلك نوعاً من الحفدة دون نوع منهم . وكان قد أنعم لكل ذلك علينا لم يكن لنا أن نوجه ذلك إلى خاص من الحفدة ، دون عام إلا ما أجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم ، وإذا كان ذلك فلكل الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا وجه في الصحة ومخرج في التأويل »(١) .

وكلمة مسحر في قوله تعالى « قالوا إنما أنت من المسحرين » (الشعراء : ١٥٣ ، ١٨٥) يقول ابن جرير : اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضهم معناه إنما أنت من المسحورين ، وقال آخرون معناه من المخلوقين ، عن ابن عباس في قوله تعالى (إنما أنت من المسحرين) قال من المخلوقين ، واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى ذلك ، فكان بعض أهل البصرة يقول » كل من أكل من إنس أو دابة فهو سحر وذلك لأن له سحراً يقوي ما أكل فيه ، واستشهد

---

(١) الأمام محمد جرير الطبري (ت ٣١٠) -جامع البيان- (١٤ / ٩٦ - ٩٩) - الطبعة الأولى - الطبعة الكبرى الأميرية سنة ١٣٢٨هـ .

على ذلك بقول لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال بعض نحويي الكوفيين نحو هذا ، غير أنه قال من قولك انتفج سحرك ، أي إنك تأكل الطعام والشراب فتسحر به وتعلل ، وقال معنى قول لبيد من هذا الأنام المسحرين هذا الأنام المعلل المخدوع ، قال ويروي أن السحر ، من ذلك لأنه كالخديعة »(١) .

فالمسحر كما رأينا من باب المشترك اللفظي ، لأنه إما أن يكون من السحر ، فيكون معناه المسحور الذي اختلط في عقله ، وإما أن يكون من السحر - بفتح السين على غير القياس بمعنى الرئة - ومنه قول السيدة عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه الإمام مسلم » توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين سحري ونحري . فالمسحر على هذا التفسير ذو الرئة الذي يأكل ويشرب ولقد أشار الزمخشري في كشافه إلى هذين القولين فلم يرجح أحدهما على الآخر ، قال « المسحر الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله ، وقيل هو من السحر الرئة وأنه بشر »(٢) .

ثم جاء الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ونقل هذه الأقوال كذلك ، وكان صنيعه مثل الزمخشري فلم يرجح قولاً على قول(٣) ، وهؤلاء هم أئمة التفسير أعني الطبري والزمخشري والرازي ، وتفاسيرهم هي الأصول التي إليها رجع وأفاد منها المفسرون ، فهم كما رأينا يذكرون الأوجه المحتملة لكلمة مسحر ، وهي من المشترك اللفظي ، والطبري وحده هو الذي رجح أحد الأقوال ، وهو أن المسحر الذي يأكل ويشرب . والذي يترجح لي في هذه الكلمة تفسيرها في كل موضع بما يتسق مع السياق والنظم ، فلقد وردت الكلمة مرتين ، كلتاهما في سورة الشعراء

---

(١) الطبري جامع البيان (١٩ / ٦٣) .

(٢) الأمام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣ / ٣٢٨) - الطبعة الأولى مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م) .

(٣) الفخر الرازي / التفسير الكبير ، (١٥٩/٢٤) ، الطبعة الأولى - المطبعة الهيئة المصرية .

الأولى حديثاً عن قوم صالح « قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » والثانية عن قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ، قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين .

فالكلمة في الآية الأولى معناها ، إنما أنت بشر تأكل وتشرب ، أما في الآية الثانية فتعني المسحور من السحر ، أي المختلط في عقله ، وإنما ذهبت هذا المذهب في تفسير الآيتين الكريمتين .

أولاً : خلو الموضوع من الواو ، « ما أنت إلا بشر مثلنا » وهذا ما يسميه علماء البلاغة فصلاً ، ومن مواضع الفصل أن تكون الثانية تأكيداً للأولى ، وذلك مثل قوله سبحانه « ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » ، فليس بين الجملتين تغاير لذلك ترك العطف .

أما في الموضع الثاني فقد جاءت الواو « أنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلا بشر مثلنا » ، والعطف يقتضي التغاير ، فكونه مسحراً يختلف عن كونه بشراً ، وهذا هو الذي لمحه الزمخشري دون أن يفصل القول فيه .

ثانياً : وإذا هناك مرجحاً بيانياً فإن هناك مرجحاً تاريخياً كذلك ، إن أمر السحر لم يكن معروفاً في القبائل العربية الأولى عاد وثمود ، لذا لم نجد تهمة السحر توجه إلى الأنبياء ، كل الذي كان يوجهه القوم إلى أنبيائهم أنهم بشر يأكل مما يأكلون « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » .

وهكذا نجد البحث في المشترك اللفظي ذا فوائد متعددة تتصل بإعجاز القرآن وبأسرار كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى .

ومن هذا اختلافهم في كلمة القدر في قوله تعالى « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، فالقدر يمكن أن يكون الشرف والمنزلة ، ويمكن أن يكون من التقدير ، ويمكن أن يفسر بالضيق ، وهو من البسط ، قال تعالى « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » والكلمة في الآية محتملة لهذه الوجوه ، فليلة القدر ذات

الشرف والمنزلة ، أو التي يقدر فيه الأشياء أو التي تضيق فيها الأرض من كثرة الملائكة وهذا كثير جداً وإنما أحببت الأشارة إليه فحسب .

وليس هذا مقتصراً على تفسير كتاب الله تعالى ، بل نجده في غيره كذلك ، فقد عرض الشريف المرتضي لمعنى كلمة أمير المؤمنين علي عليه السلام » من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً أو تجفافاً ، فبعد أن ينقل قولي أبي عبيد القاسم ابن سلام وابن قتيبة في معنى الفقر ، يذكر معنى ثالثاً ، فيقول :

« ويمكن أن يكون في الخبر وجه ثالث فشهد بصحته اللغة ، وهو أن أحد وجوه معنى لفظة الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم أو قريب منه ، ثم يكوي عليه حبل يذلل بذلك الصعب . يقال : فقره يفقره فقراً إذا فعل ذلك به ، وبعير مفقور وبه فقره ، وكل شيء حززته وأثرت فيه فقد فقرته تفقيراً ، ومنه سميت الفاقرة ، وقيل سيف مفقر فيحمل القول على أنه عليه السلام أراد : من أحبنا فليزم نفسه وليخطمها وليقدها إلى الطاعات ، ويصرفها عما تميل طباعها إليه من الشهوات ، وليذللها على الصبر عما كره منها ، ومشقة ما أريد منها ، كما يفعل ذلك البعير الصعب ، وهذا وجه في الخبر ثالث لم يذكر .

وليس يجب أن يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد من اللغة وكلام العرب لأن الواجب على من يتعاطى تفسير غريب القرآن والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني فيجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منها منفرداً وليس عليه العلم بمراده بعينه فإن مراده مغيب عنه وأكثر ما يلزمه ما ذكرناه من ذكر وجوه احتمال الكلام »(١)ولقد تعددت الجهات التي بحثها العلماء في المشترك اللفظي فمن ذلك بحثهم في الأضداد والملاحن ، والمسلسل والمشجر والمداخل ، ويعنون به تسلسل الألفاظ وتداخلها وشرحها ، وبيان ما بينها من صلات ووشائج ، فتفسر اللفظة بكلمة ، ثم تفسر الكلمة بأخرى وهكذا ، وهذه كلها مباحث لغوية لا تخص القرآن وحده .

وهناك مباحث خاصة بالقرآن الكريم وهي ما عرف عند الكاتبين في علوم

---

(١) أمالي المرتضي (١/١٨) .

القرآن بالوجوه والنظائر والأفراد وسنقتصر من هذه المباحث على ما هو ألصق بالدراسات القرآنية .

أولاً « الأضداد » :

والأضداد قسم من المشترك اللفظي ، ذلكم لأن الكلمة التي لها أكثر من معنى قد يمكننا الجمع بين معانيها ، كما رأينا في الأمثلة السابقة ، فنحمل اللفظ على كل ما قيل في معناه ، وقد يكون ذلك متعذراً ، لأن المعنين متضادان .

والحق أن البحث في الأضداد كان من أول ما استرعى أنتباه العلماء فشمروا عن سواعدهم باحثين محاولين استقصاء هذه الكلمات أو التنبيه عليها ، وبين أيدينا أكثر من كتاب يحمل هذا العنوان (الأضداد) .

ولعل أولها كتاب (الأصمعي)(١) ، وقد استشهد على أكثر ما ذكره بآيات من القرآن الكريم ، والأصمعي : محافظ كما نعرف ، فهو يتحرج كثيراً أن يبدي في القرآن رأياً ، وهذا هو المنهج الذي نجده في كتابه يتحدث عن كلمة ؟ قرء) بأنها قد يراد بها : الطهر ، وقد يراد بها : الحيض ، ويستشهد على ذلك بشيء من الشعر ، ويتحدث بعد ذلك عن كلمة (شعب) يقال : شعبت الشيء : بمعنى : أصلحته ، وشعبته : بمعنى فرقته .

وكذلك كلمة (عسعس) : يمكن أن تفسر بمعنيين متضادين : أقبل أو أدبر ، ويتحدث عن كلمة (أقوى) : فالمقوي من لازاد عنده ، ولا متاع ، والمقوي : كثير المال . وكذلك كلمة (عفا) يقال : عفا الشيء : إذا درس ، وعفا : إذا كثر .

وهذه الكلمات كلها في كتاب الله تعالى . قال تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) (البقرة ٢٢٨) وقال تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (الحجرات ١٣) ، وقال تعالى (والليل إذا عسعس) (التكوير :

---

(١) هو سعيد بن عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع المعروف بالأصمعي ، صاحب لغة ونحو وإمام في الأخبار والنوادر والمنح والغرائب) ت ٢١٧هـ - ٩٣٢م) .

١٧) ، وقال تعالى (نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) الواقعة ٧٣ ، وقال تعالى (حتى عفوا) ؟ الأعراف : ١٥)(١) .

والكتاب الثاني من كتب الأضداد لأبن السكيت(٢) وهو شبيه بكتاب الأصمعي كأنما هو رواية ثانية له : فهو يبدأ بكلمة (القرء) كما بدأ الأصمعي وكلمة الأقواء .

والكتاب الثالث هو (الأضداد) لأبي بكر السجستاني(٣) ، وكان من حقه ومن حقنا أن نعده الكتاب الثاني لأنه متقدم على ابن السكيت ، ولكن لما كان كتاب ابن السكيت نسخة عن كتاب الأصمعي ، وكان كتاب السجستاني يمثل طوراً جديداً في دراسة الأضداد ، آثرنا اغفال العامل الزمني .

أفاد السجستاني كثيراً من أستاذه الأصمعي ، ولكنه لم يقف عند ما وقف عنده ، وهو يبين لنا الغرض من تأليفه كتابه ، ونلاحظ إن الدافع على تأليفه خدمة كتاب الله تبارك وتعالى يقول :

« حملنا على تأليفه أنا وجدنا من الأضداد في كلامهم ، والمقلوب شيئاً كثيراً فأوضحنا ما حضر منه إذا كان يجيء في القرآن الظن يقينا وشكاً ، والرجاء خوفاً وطمعاً ، وهو مشهور في كلام العرب ، وضد الشيء خلافه وغيره فأردنا أن يكون لا يرى من لا يعرف لغات العرب أن الله عز وجل حين قال (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون) (البقرة ٤٥ ، ٤٦) مدح الشاكين في لقاء ربهم ، وإنما المعنى يستيقنون ، وكذلك في صفة من أوتى كتابه بيمينه من أهل الجنة : (هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت) (الحاقة ١٩-٢٠) يريد إني ايقنت ، ولو كان شاكاً لم

---

(١) ثلاثة كتب في الأضداد - للأصمعي والسجستاني ولابن السكيت - دار الشرق بيروت - نشرها الدكتور أوغست هفنر أستاذ العربية في كلية اسنيروك - المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعين - كتاب الأضداد عن الأصمعي ص ٥-٨ .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) هو سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم الجشمي السجستاني (١٦٥هـ - ٢٥٥هـ) من ساكني البصرة ، كان أماماً في علوم القرآن واللغة والشعر ، وكان كثير التصانيق في اللغة ، وصنف في النحو والقراءة .

يكن مؤمناً ، وأما قوله ؟ قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً) (الجاثية : ٣٢) ، فهؤلاء شكاك كفار[1] .

« . . . . رجاء : قال أبو حاتم : والرجاء : يكون طمعاً ، ويكون خوفاً ، وفي القرآن في معنى ؟ الطمع) (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) (الإسراء : ٥٧) ، وقوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) (القصص : ٨٦) ، وقوله سبحانه (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) ؟ الإسراء : ٢٨) ، قال كعب بن زهير « البسيط » :

أرجو وآمل أن تدنو مودتُها   وما إخالُ لدينا منكِ تنويلُ

أراد الطمع ، وأراد : وما لدينا منك تنويل إخال ، فألغى إخال ، وفي الحديث ؟ لو وزن رجاء المؤمن بميزان تريص لا عتدلا .

والتريص : المقوم تقويماً . قال الشاعر : ؟ وهو ذو الإصبع العدواني) في نَبْل مقوّمة ؟ المنسرح)

قوّم أفواقَها وترّصَهَا   أنْبل عَدْوانَ كلها صَنَعا

أنبل : أحذق ، وقال بشر بن أبي حازم : « الوافر » :

فرجي الخير وانتظري أيابي   إذا ما القارظ العُنَزيّ آبا

ويقال : رجوت ورجيت « مشددة » وارتجيت في المعنيين : طمعت وخفت وقال : الرجز :

وما ترجي إذ تلاقي الذائد   أسبعة لاقت معاً أم واحداً

أي : ما تخاف ولا تبالي : وهي في لغة هذيل وكنانة ونصر وخزاعة في معنى : المبالاة والرجاء : في القرآن في معنى (الخوف) كثير ، قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه) [الكهف : ١١٠] ، وقال (الذين لا يرجون لقاءنا) [يونس ٧] ، وقوله (وأرجوا اليوم الآخر) [العنكبوت : ٣٦) ، وهو كثير ، قال أبو ذؤيب : « الطويل » :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها في بيت نوب عواملُ .

---

(١) ثلاثة كتب في الأضداد - كتاب الأضداد للسجستاني ص ٢ .

أنث النحل وهي لغة ، والتذكير : جيد ، وبيت النحل : الجبح والخلية ، والجمع : الجباح والخلايا ، والنوب : جمع نائب ، ونوب : أراد أنها تختلف ، وتأتي بالشمع والعسل ، وليس قول أبي عبيدة : أراد إنها سود مثل ألوان النوبة لجنس من الحبش بشيء ، وزعم أنه يقال : النوبة واللوبة ، والنوبي ، واللوبي واللابة : الحرة ، وهي أرض كأنما فرشت بالحجارة ، والجمع اللاب واللوب ، كما يقال : دارة من الرمل ، ودور ودار ، ولا يقال : لوبة ولوب ، وإن كانت الأصمعي قد ذكر ذلك ، فإنه لم يصح عندنا من وجه لآخر ، كما لا يقال : دورة ودور ، وإنما هي : دارة ودور ، وقول العجاج (الرجز) : « من الدبيل ناشطاً للدور » .

يعني : ؛ لدارات الرمل ، والدبيل : رمل معروف . والناشط : الذي يقطع من موضع إلى موضع آخر ، وهو هاهنا : : ثور وحشي ، قال النابغة : (الطويل) :

مجلتهم ذات الأله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[1] .

« . . . . . خاف : وكان أبو عبيدة يقول : خاف : من الخوف ، ومن اليقين ، وكان يقول : (فإن خفتم ألا تعدلوا) النساء : ٣ يريد : أيقنتم ، ولا علم لي بهذا ، لأنه قرآن فإنما نحكيه عن رب العالمين ، ولا ندري لعله ليس كما يظن[2] .

« . . . . . أسر : وقال أبو عبيدة : أسررت الشيء أخفيته وأظهرته أيضاً ، وكان يقول في هذه الآية (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) يونس : ٥٤ أظهروها ، ولا أثق بقوله في هذا ، والله أعلم ، وقد زعموا أن الفرزدق قال : (الطويل) :

فلما رأى الحجاج جرد سيفه أسر الحروري الذي كان أضمرا

ولا أثق أيضاً بقول الفرزدق في القرآن ، ولا أدري لعله قال : « الذي كان

---

[1] كتاب الأضداد للسجستاني ص ٨٠ .

[2] المرجع السابق ص ٨٨ .

أظهرا » أي : كتم ما كان عليه ، والفرزدقُ : كثير التخليط في شعره ، وليس في قول نظيريه جرير والأخطل ، شيء من ذلك ، فلا أثق به في القرآن (١) .

ويمكن إن نستخلص الحقائق التالية :-

١ - إن أبا حاتم : لا يرى التوسع في نظرية الأضداد في اللغة ، وخاصة في لفظ القرآن ، فهو لا يرى التسليم بما قاله المفسرون واللغويون من قبل ، بل ينقد آراءهم ويفندها مخطئاً كثيراً منها .

٢ - الاقتصار في الألفاظ الأضداد على ما جاء منها مما لا يحتمل الشك ويؤيده السياق والشواهد الصحيحة .

٣ - رَجْعُ باقي ما جاء منها إلى أصولها ، من تصحيف وتغاير في اللهجات أو مجرد أخطاء وقع فيها الشعراء نتيجة الاختلاط بالمولدين ، أو أخطاء في الشعر نفسه نتيجة تداول ألسنة الرواة .

ويهمنا أن نرجع إلى أصل هذا الرأي - القول بعدم التوسع في الأضداد - في القرآن خاصة ، وهو واضح في كتابه ، ذلك أن المتوسع فيها لا يسلم من العثرات ولا ينبغي لمفسر القرآن التمادي وراءها ، يقول :

« وكل شيء من هذا الباب في القرآن فتفسيره يُتَقي ، وما لم يكن في القرآن فهو أيسر خطباً » .

٤ - إرجاع بعض ما جاء في الأضداد إلى حالات خاصة ملابسة اللفظ ، كالتفاؤل ، أو التشاؤم .

٥ - الاكتفاء في بعضها بذكر ما جاء في تفسير العلماء مع الوقوف بين الآراء المتعارضة موقفاً وسطاً (٢).

---

(١) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٢) الدكتور محمد زغلول سلام - أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري - قدم له الأستاذ : محمد خلف الله أحمد - دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

الأضداد : لأبن الأنباري⁽¹⁾ :

وهو الحلقة الثالثة من كتب الأضداد ، يقول في مقدمته :

« هذا كتاب ذكر الحروف ، التي توقعها العرب على المعاني المتضادة ، فيكون الحرف منها مؤدياً عن معنيين مختلفين ، ويظن أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب إن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم ، وقلة بلاغتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم عن ذلك ، ويحتجون بأن الأسم منبيء عن المعنى الذي تحته ، ودال عليه ، وموضح تأويلهن ، فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان ، لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب ، وبطل بذلك معنى تعليق الأسم على المسمى ، فأجيب عن هذا الذي ظنوه ، وسألوه عنه بضروب من الأجوبة :

أحدهن : إن كلام العرب يصحح بعضه بعضاً ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا بأستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها ، ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد »⁽²⁾ .

الواضح إذن : إن ابن الأنباري قصد بكتابه الرد على الشعوبيين أولاً وخدمة العربية ، لغة القرآن ثانياً ، وهذان العاملان أشرت إليهما في أول الباب ، ويمثل بعد ذلك بألفاظ ذوات معان متضادة يحدد السياق المعني المقصود لكل لفظة ، واستشهد لذلك ببعض الشعر ، ثم قسم الكلام إلى أربعة أقسام ليبين خطورة الأضداد⁽³⁾ .

---

(١) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر الأنباري ، (٢٧١ - ٣٢٨هـ ٨٨٤ ؛ ٩٤٠م) من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار .

(٢) الأضداد في اللغة - اعتنى بضبطها بالشكل وتصحيحها الشيخ محد عبد القادر سعيد الرافعي ، والعلامة اللغوي أحمد الشنقيطي - طبع بالمطبعة الحسينية المصرية - بكفر الطماعين بمصر ص ٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٦ .

١ - ألفاظ لا تعني إذا وردت في الكلام إلا معنى واحداً ، لا يتغير بتغير السياق ، كالرجل والمرأة ، والجمل والناقة ، واليوم والليلة ، وقام وقعد ، وتكلم وسكت ، وهذا هو الكثير الذي لا يحاط به .

٢ - ألفاظ لا يفهم معناها إلا بالسياق ، ولا يمكن أن تختلط في المدلول ، مثل لفظ ؟ حَمَل) بمعنى ولد الضأن ، و (حمل) بمعنى اسم الرجل .

٣ - ألفاظ بقع اللفظان منها أو أكثر على المعنى ، كقولك : البر والحنطة ، أو العير والحمار ، والذئب والسيد ، وجلس وقعد .

٤ - ألفاظ يختلف معناها باختلاف السياق ، وهذا القسم يضم الاضداد ، وهو القسم المهم في هذا البحث ، لأنه القليل الظريف من كلام العرب .

ويبين بعد ذلك : إن ما كتب قبله في الأضداد لم يكن تاماً ، فأراد أن يجمعه ويزيد عليه ، وأول ما يذكره (الظن) يقول :

فأول ذلك (الظن) يقع على معان أربعة :

معنيان متضادان ، أحدهما : الشك ، والآخر : اليقين الذي لاشك فيه ، فأما معنى : الشك ، فأكثر من أن تحصى شواهده ، وأما معنى : اليقين فمنه قول الله عز وجل (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) الجن : ١٢ .

معناه : علمناه ، وقال جل أسمه ؟ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) الكهف : ٥٣ ، معناه : فعلموا بغير شك . . . »⁽¹⁾ .

« . . . . والمعنيان اللذان ليسا بمتضادين : أحدهما : (الكذب) ، والآخر : (التهمة) ، فإذا كان (الظن) بمعنى الكذب ، قلت : ظن فلان ، أي كذب ، قال الله عز وجل (وإن هم إلا يظنون) البقرة : ٧٨ فمعناه : إن هم إلا يكذبون ، ولو كان على معنى الشك ، لاستوفى منصوبيه أو ما يقوم مقامها ، وأما معنى : التهمة ، فهو ان تقول : ظننت فلاناً ، فتستغنى عن

---

(١) الأضداد في اللغة ص ١١ .

الخبر ، لأنك تريد تهمته ، ولو كان بمعنى : الشك المحض لم يقتصر به على منصوب واحد⁽¹⁾ .

« . . . . وقال بعض أهل اللغة : رجوت : حرف من الأضداد ، يكون بمعنى : الشك والطمع ويكون بمعنى : (اليقين) ، فأما معنى : الشك والطمع فكثير لا يحاط ، ومنه قول كعب بن زهير :

أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما إخال لدينا منك تنويل

معناه : وما لدينا منك تنويل واخال : لغو .

وأما معنى (العلم) فقوله عزوجل (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً) الكهف : ١١٠ . معناه : فمن كان يعلم لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، وقولهم عندي غير صحيح ، لأن الرجاء لا يخرج أبداً من معنى : الشك ، أنشدنا أبو العباس :

فوا حزني ما أشبه اليأس بالرجا وإن لم يكونا عندنا بسواء

والآية التي احتجوا بها : لا حجة لهم فيها ، لأن معناها : فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه ، أي يطمع في ذلك ، ولا يتيقنه .

وقال سهل السجستاني : معنى قوله (فمن كان يرجو لقاء ربه) فمن كان يخاف لقاء ربه ، وهذا عندنا غلط ، لأن العرب لا تذهب بالرجاء مذهب الخوف إلا مع حروف الجحد ، وقد استقصينا الشواهد لهذا ، ويقال : ارتجيت ورجيت بمعنى »⁽²⁾ .

ويواصل ابن الأنباري حديثه عن الأضداد ، ونود أن نسجل هنا أن دراسة الأضداد طرأ عليها ما طرأ على دراسة الغريب مما تحدثنا عنه من قبل :

١ - فهذا ابن الأنباري يكمل ما بدأه من قبله ، مرافقاً حيناً ، وراداً حينا آخر .

٢ - إن الغالب على مادة الأضداد ، كونها من كتاب الله تبارك وتعالى ، هذا يدل خير دلالة على عناية أولئك الأئمة -رحمهم الله تعالى- بالكلمات القرآنية وتعيين مدلولاتها حتى لا يكون حرج أو اختلاف .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) الأضداد في اللغة لابن الأنباري ص ١٣ ، ١٤ .

ثانياً « الملاحن » :

ومن أقسام المشترك الملاحن ، وهي مشتقة من الملحن ، وللحن أكثر من معنى ، ولكن المعنى الذي يتصل بما نحن بصدده الفطنة والذكاء والتعريض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم« لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته » أخرجه البخاري ومسلم .

« وقل القتال الكلابي

ولقد وحيت لكم لكيما تفطنوا   ولحنت لحناً ليس بالمرتاب

وقول مالك بن اسماء بن خارجة الغزاري :

وحديث ألذه هو مما   ينعت الناعتون يوزن وزناً
منطق صائب وتلحن أحيا   نا وخير الحديث ما كان لحناً(١)، (٢)

أخذ بعض العلماء والمتأدبين على الجاحظ وابن قتيبة تفسيرهما اللحن بأنه الخطأ في القول ، وإنما المقصود بالبيت وصفها بالظرف والفطنة وأنها توري بما قصدت له(٣) .

فالمقصود من الملاحن - إذن - أن تكون اللفظة لها معنيان توري باحدهما عن الآخر فكلمة لعبت يمكن أن تكون من اللعب ، ويمكن أن تكون من اللعاب .

ومن الذين كتبوا في الملاحن ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢٠ هـ) ، يقول في مقدمة كتابه :

« هذا الكتاب ألفناه ليفزع إليه المجبر المضطهد على اليمين المكره عليها

---

(١) حديث معطوف على ما قبله ، أي لها وجه ولها حياء ، ولها حديث أو مثل ذلك قوله (ألذه) أي استاذه ، يقال : لذذت به ولذذته ، وقوله « مما ينعت الناعتون » أي مما ينعته الناعتون ، وقوله لله ممات يوزن وزن؞ » أي موزونا ، فهو في موضع الحال .

(٢) الشريف المرتضي على بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ) الأمالي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ١٤) دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشكاه .

(٣) الشريف المرتضي / الأمالي (١ /١٥) .

فيعارض بها رسمناه ويضمر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم ، ويتخلص من حيف الغاشم ، وسميناه كتاب (الملاحن) واشتققنا له هذا الأسم من اللغة العربية الفصيحة . . . لأن اللحن عند العرب : الفطنة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

(لعل أحدكم ألحن بحجته من بعض) أي أفطن لها ، وأغوص عليها ، وذلك أن أصل اللحن أن تريد شيئاً فتوري عنه بشيء آخر(١) .

بقى مما هو وثيق الصلة بهذه الأنواع قسمان يجب التنبيه لهما ، والعناية بهما ، فلئن كانت الأقسام السابقة عامة في القرآن وغايره ، فإن هذين يختص بهما كتاب الله تبارك وتعالى . ونعني بهما : (الوجوه) أولاً ، و (الأفراد) ثانياً .

أما الوجوه : فأن يكون للكلمة الواحدة معان كثيرة ، وفي كتب علوم القرآن فصول لهذا النوع ، من ذلك كلمة (الهدى) جاءت في كتاب الله تعالى على تسعة عشر وجهاً ، أي تسعة عشر معنى ، وهذه المعاني هي :

الثبات : ﴿ أهدنا الصراط المستقيم ﴾ الفاتحة : ٦

والبيان : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ البقرة : ٥

والدين : ﴿ إن الهدى هدى الله ﴾ آل عمران : ٧٣

والايمان : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ مريم : ٣٦

والدعاء : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ الرعد : ٧ ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ الأنبياء : ٧٣ .

وبمعنى :

الرسل والكتب : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ البقرة : ٣٨ .

والمعرفة : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ النحل : ١٦

وبمعنى :

النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات

---

(١) مقدمة كتاب الملاحن - لابن دريد - الطبعة السلفية سنة ١٣٤٧هـ .

والهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ البقرة : ١٥٩ .

وبمعنى : القرآن ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ النجم : ٢٣

وبمعنى : التوراة ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ غافر : ٥٣

وبمعنى : الاسترجاع : ﴿ أولئك هم المهتدون ﴾ البقرة : ١٥٧

والحجة : ﴿ لايهدي القوم الظالمين ﴾ البقرة : ٢٥٨ ، بعد قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ أي لا يهديهم حجة .

والتوحيد : ﴿ إن نتبع الهدى معك ﴾ القصص : ٥٧

والسنة : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ الانعام : ٩٠ ﴿ وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ الزخرف : ٢٢ .

والاصلاح : ﴿ وإن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ يوسف : ٥٢

والإلهام : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ طه : ٥٠ أي : ألهمهم المعاش .

والتوبة : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ الأعراف : ١٥٦

والإرشاد : ﴿ أن يهديني سواء السبيل ﴾ القصص : ٢٢(١) .

ومن ذلك الصلاة تأتي على وجوه كثيرة منها :

الصلوات الخمس ، وصلاة العصر ، وصلاة الجمعة والجنازة والدعاء ، والدين والقراءة ، والرحمة والاستغفار ، ومواضع الصلاة .

ومن ذلك الرحمة ، ووردت على أوجه منها :

الاسلام ، والايمان ، والجنة ، والمطر ، والنعمة ، والنبوة ، والقرآن ، والرزق ،

---

(١) من أراد المزيد ، فليرجع : الاتقان للسيوطي ١/١٤١ ، والبرهان في علوم القرآن : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الأولى ١٣٧٦ - ١٩٥٧م - دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه للأمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزرك .

والنصر ، والفتح ، والعافية ، والمودة ، والسعة ، والمغفرة ، والعصمة (١) .

الافراد :

ويعنون بالافراد : أن يأتي اللفظ في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة ، فيكون معناه واحداً في جميعها ، ولكنه يخرج عن هذا المعنى في موضع واحد ، لذلك سمي هذا النوع بالأفراد ، لأن اللفظة في موضع واحد تجيء بمعنى غير الذي جاءت له في مواضع كثيرة .

ومن ذلك مثلاً كلمة (البروج) فحيثما وردت في كتاب الله تعالى ، فمعناها الكواكب أو المنازل ، قال تعالى (والسماء ذات البروج) البروج : ١ (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً) الفرقان : ٦١ ولكنها جاءت في موضع واحد تختص بمعنى آخر ، وهي قوله سبحانه (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) النساء : ٧٨ ، فالبروج : هنا تفسير بالقصور .

ومن ذلك كلمة (أسف) فلقد وردت في كتاب في مواضع كثيرة ، وكلها تفسر بالحزن ، قال تعالى ؟ فتولى عنهم وقال ياأسفا على يوسف) يوسف : ٨٤ .

وقال (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) الأعراف ١٥٠ ولكنها جاءت في موضع واحد لغير المعنى ، وهذا الموضع قوله سبحانه ؟ فلما آسفونا انتقمنا منهم) الزخرف : ٥٥) فإنها لا يجوز هنا إن تفسر بالحزن ، إنما تفسر بالغضب ، أي : فلما اغضبونا . ومن ذلك كلمة (فحشاء) فحيث وردت في كتاب الله ، فيقصد بها الزنا ، وما عظم من الفواحش ، إلا أن موضعاً واحداً

---

(١) وأول من كتب في الوجوه مقاتل بن سليمان المتوفي سنة مائة وخمسين للهجرة وقد طبع كتابه بتحقيق الدكتور عبد الله شحاده ، ويليه كتاب يحيى بن سلام ، وقد طبع بتحقيق الدكتوره هند شلبي ، وأوسع منهما كتاب الدامغاني ، وهو مطبوع كذلك ، وكتب الوجوه والنظائر كثيرة .

ولا يخلو ما ذكروه من تداخل بين معاني هذه الكلمات ، فعند التحقيق يمكن أن نرجع كثيراً من المعاني المتعددة إلى معنى واحد .

فسرت فيه الكلمة بالبخل وهو قوله سبحانه ؟ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) البقرة : ٢٦٨ فالفحشاء ، هنا : البخل : وممن كتب في الوجوه والأفراد ابن فارس(١) .

ثالثاً « المشترك المعنوي » :

ونعني به الترادف ، والترادف عند مثبتيه أن يكون للكلمتين أو الكلمات معنى واحد ويظهر أن الحديث عن الكلمات التي تبدو لأول وهلة أنها مترادفة ، وتلمس ما بين هذه الكلمات من فروق دقيقة ظهر مبكراً ، فقد تقدم لنا من قبل قول ابن هرمة :

(هذا ابن هرمة قائماً بالباب)

وكيف أن ابن هرمة أنكر على منشده هذا البيت وصوبه له (هذا ابن هرمه واقفاً بالباب وبين له إن الفرق بين الكلمتين فرق شاسع .

ومن هذا ما رووه عن النضر بن شميل من أنه دخل على المأمون ، فقال له : أجلس مرتين أو ثلاث فقال النضر : ياأمير المؤمنين إنما يكون الجلوس بعد اتكاء ، وذكره بما جاء في السنة عن بعض الرواة ، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يعظ أصحابه ويعلمهم فنهاهم عن الشرك بالله وعقوق الوالدين ، قال راوى الحديث وكان متكئاً وجلس ، ثم قال ألا وقول الزور « قال المأمون : فماذا أقول - إذن - قال : قل اقعد فأعجب المأمون ذلك .

ومما هو أصل في موضوعنا هذا واشتهر بين العلماء كلمة الجاحظ .

« وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستملونها وغيرها أحق بذلك ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع ، في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الاسماع ، وإذا ذكر سبع

---

(١)راجع الاتقان للسيوطي (١ /١٤٣) .

سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع اسماعاً ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا ينتقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولى بالاستعمال ، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج(١) .

ولقد كان لهذه الملحوظات وما يشبهها أثر غير خفي في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى فيما بعد ، فلماذا استعملت كلمة القيام في مثل قوله تعالى « فإذا أظلم عليهم قاموا » بينما استعملت كلمة الوقوف في مثل قوله سبحانه « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم » وقفوهم إنهم مسؤولون » ؟ ولم استعملت مادة القعود كثيراً في كتاب الله في مثل قوله سبحانه « وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » « وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع » ، « والقواعد من النساء ، على حين لم تستعمل مادة الجلوس إلا في آية واحدة » إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » ؟ ولم استعملت كلمة الفعل في آيات وكلمة العمل في آيات أخرى ؟ إلى غير ذلك من أبحاث شيقة مفيدة تحدد لكل لفظ معناه الذي لا يشترك معه غيره فيه .

ولا بد أن نقرر هنا بأن عدم التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية قد حرم الناس من فوائد كثيرة ، وحال بينهم وبين إدراك متكامل لمدلول الكلمة القرآنية ، وسد أمامهم أبواب الوعي الدقيق لكثير من الآيات الكريمة ، ونعترف أن كثيراً من كتب التفسير والمعاجم اللغوية كانت سبباً في ذلك كله حيث التقت هذه الكتب والمعاجم على أن تعطي المعنى القريب للكلمة القرآنية ، فتشتبه المعاني ، وتختلط بعضها ببعض .

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها ، فإن كثيرين وقفوا من الترادف موقف السلبيه والانكار(٢) ، وقد فطن بعض العلماء

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر بن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) البيان والتبين - تحقيق وشرح عبد السلام هارون - دار الجبل (١ / ٢٠) .

(٢) انظر : مجلة الثقافة - الأستاذ علي عبد الواحد، وافي - سنة ١٩٧٣م .

والباحثين لهذه القضية الخطرة ، وما يمكن أن تحدثه من أثر سلبي في فهم المعنى وإدراكه ، فطرحوا قضية الترادف للبحث ، ولم يقتصر ذلك على الأقدمين فحسب ، بل تجاوزه إلى المحدثين كذلك ، وهذه خلاصة لارائهم وأقوالهم .

١ - أبو هلال العسكري :

وهذا الإمام اللغوي أبو هلال العسكري⁽¹⁾ - رحمه الله تعالى - صاحب الصناعتين في كتاب (الفروق اللغوية) يذكر في مقدمته : « أنه ألف كتابه في الفروق بين معاني الألفاظ ، لأنه لم يجد من كتب قبله في هذا الموضوع ، وبين أنه سيذكر ما جاء من ذلك في كتاب الله تعالى ، وفي كلام العرب .

وفي الباب الأول : من الكتاب ، نقل كثيراً من أقوال المحققين مستشهداً على عدم وجود الترادف في العربية ، وما نقله حرى بنا أن نقتطف منه بعض العبارات لأنه جدير بأن يذكر ويسجل .

قال رحمه الله تعالى : « وكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين ، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان يدلان على معنى واحد ، لأن ذلك تكثيراً للغة بما لا فائدة فيه . . . . »⁽²⁾ .

ثم قال رحمه الله تعالى :

« ولهذا المعنى أيضاً ، قال المحققون من أهل العربية : إن حروف الجر لا تتعاقب ، حتى قال ابن درستويه في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة ، وإفساد الحكمة منها ، والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس ، قال أبو هلال - رحمه الله تعالى - وذلك أنها إذا تعاقبت خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منهما بعنق الآخر ، فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد ، فأبى المحققون أن يقولوا بذلك ، وقال به من لا يتحقق المعاني⁽³⁾ .

---

(1) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، أبو هلال (ت ٣٩٥هـ - ١٠٠٥م) عالم بالأدب .

(2) الفروق اللغوية - ضبطه وحققه حسام الدين القدسي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م ص ١٢ .

(3) ص ١٢ - ١٣ .

ثم أورد أبو هلال ما يتوهمه بعضهم من ضرورة وجود الترادف في العربية ، أورده رداً مقنعاً مفحماً قال :

« ولعل قائلاً يقول : أن امتناعك من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد رد على جميع أهل اللغة لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا : « هو العقل . أو الجرح : قالوا : هو الكسب ، أو السكب ، قالوا : هو الصب ، وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء ، وكذلك الجرح والكسب ، والسكب والصب ، وإن كان أشبه ذلك ، قلنا : نحن أيضاً كذلك نقول ، إلا أنا نذهب إلى قولنا : اللب ، وإن كان هو العقل فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا : العقل ومثل ذلك القول ، وإن كان هو الكلام ، والكلام هو القول ، فإن كل واحد منهما يفيد بخلاف ما يفيده الأخر ، وكذلك المؤمن ، وإن كان هو المستحق للثواب ، فإن قولنا : مستحق للثواب يفيد خلاف ما يفيده قولنا : مؤمن ، وكذلك : جميع ما في هذا الباب⁽¹⁾ .

٢ - ابن فارس :

ومن هؤلاء الأمام اللغوي أبو الحسن أحمد بن فارس (- ٣٩٥ هـ) في كتابه ؟ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلام) فهو ينكر قضية الترادف بين الكلمات يقول : يسمى الشيئان المختلفان بالأسمين المختلفين ، وذلك أكثر الكلام كرجل وفرس ، وتسمى الأشياء الكثيرة بالأسم الواحد نحو : عين الماء وعين السحاب ، ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو : السيف والمهند والحسام ، والذي نقوله في هذا إن الأسم واحد هو السيف ، وما بعده من الألقاب صفات ، ومذهبنا إن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى .

وقد خالف في ذلك قوم فزعموا أنها - إن اختلف الفاظها - فإنها ترجع إلى معنى واحد ، وذلك قولنا : سيف وعضب وحسام ، وقال آخرون : ليس منها الأسم ولا صفة إلا معناه غير معنى الآخر ، قالوا وكذلك الأفعال ، نحو : مضي وذهب وانطلق ، وقعد وجلس ، ورقد ونام وهجع ، قالوا : ففي قعد معنى ليس

---

(١) ص ١٣ - ١٤ .

في جلس وكذلك القول فيما سواه ، وبهذا نقول ، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب واحتج أصحاب المقالة الأولى بأنه لو كان لكل لفظة معنى غير الأخرى لما أمكن أن يعبر عن شيء بغير عبارته ، وذلك أنا نقول في (لاريب فيه) : لاشك فيه ، فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطأ ، فلما عبر عن هذا علم أن المعنى واحد ، قالوا وإنما يأتي الشعر بالأسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان تأكيد ومبالغة كقولهم : « طويل » .

وهند أتى من دونها النأي والبعد

قالوا : فالنأى هو البعد ، قالوا ، وكذلك قول الآخر : (عام الحبس والأصر) ، فإن الحبس هو الأصر .

ونحن نقول إن في قعد معنى « ليس في جلس ، ألا ترى أنا نقول : قام ثم قعد وأخذه المقيم والمقعد ، وتعدت المرأة عن الحيض .

ونقول لناس من الخوارج قعد ، ثم نقول : كان مضطجعاً فجلس ، فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس ، لأن الجلس المرتفع ، فالجلوس ارتفاع عما دونه وعلى هذا يجري الباب كله .

وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يعبر عن الشيء بالشيء فإنا نقول : إنما عبر عنه من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول إن اللفظتين مختلفتان فيلزمنا ما قالوه ، وإنما نقول إن في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى (١) .

وإذا كان هذا موقف هذين الإمامين اللغويين من الترادف ، فإن هناك موقفاً آخر يمثله أحد رجال الفقه ، ذلكم هو الإمام الشوكاني ، فبعد إن عرف الترادف وفرق بينه وبين المؤكد قال :

وقد ذهب الجمهور إلى إثبات الترادف في اللغة العربية ، وهو الحق ، وسببه إما تعدد الوضع أو توسع دائرة التعبير وتكثير وسائله ، وهو المسمى عند أهل هذا

---

(١) أبو الحسين أحمد بن فارس / الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى اليحي ، ص ٩٦ - ٩٧ .

الشأن بالامتنان أو تسهيل مجال النظم والنثر وأنواع البديع فإنه قد يحصل أحد اللفظين المترادفين للقافيه أو الوزن أو العجة دون الآخر وقد يحصل التبخيس والتقابل والمطابقة ونحو ذلك ، وهذا دون هذا ، وبهذا يندفع ما قاله المانعون لوقوع الترادف ، في اللغة ، من أنه لو وقع لعرى عن الفائدة لكفاية أحدهما فيكون الثاني من باب العبث ويندفع أيضاً ما قالوه من إنه تكون من تحصيل الحاصل ، ولم يأتوا بحجة مقبولة في مقابلة ما هو معلوم بالضرورة من وقوع الترادف في لغة العرب مثل الأسد والليث ، والحنطة والقمح ، والجلوس والقعود ، وهذا كثير جداً ، وانكاره مباهته .

وقولهم إن ما يظن إنه من الترادف هو من اختلاف الذات والصفة كالإنسان والبشر ، أو الصفات كالخمر لتغطيته العقل ، والعقار لعقره أو لمعاقره أو اختلاف الحالة السابقة كالقعود من القيام ، والجلوس من الاضطجاع تكلف ظاهر وتعسف بحت ، وهو إن أمكن تكلف مثله في بعض المواد المترادفه فإنه لا يمكن في أكثرها يعلم هذا كل عالم بلغة العرب ، فالعجب من نسبه المنع من الوقوع إلى مثل ثعلب وابن فارس مع توسيعهما في هذا العلم⁽¹⁾ .

ونحن ننازع الشوكاني في كثير مما ذهب إليه ، ننازعه أولاً في نسبته إثبات الترادف للجمهور ، اللهم إلا أن يكون جمهور الفقهاء والأصوليين ، مع أن هؤلاء مختلفون في هذا الأمر وقد تقدم لنا قول الجاحظ وأبي هلال وابن الأعرابي وابن فارس ، وابن درستويه وأبي على الفارسي ، وهؤلاء أئمة في البيان واللغة والنحو ، وننازعه كذلك من إن التر ادف يكون للأمتنان ، أو تسهيل مجال النظم والنثر ، ولو كان الأمر كما قال لذهب كثير من معاني الشعر والنثر ، فكم من كلمة اختارها الشاعر لإكمال قافيته كان مما عابه العلماء والنقاد .

وننازعه كذلك فيما رمى به منكري الترادف من التكلف والمباهته وخير ما يرد به عليه كتاب الله تبارك وتعالى ، وعلى سبيل المثال ما نقلناه من الآيات الكريمة التي استعملت فيها الكلمات استعمالا دقيقاً حيث جاءت مادتاً القيام والوقوف ،

---

(1) الأمام محمد بن علي الشوكاني / إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول / ص ١٨ - القاهرة (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) مطبعة مصطفى الحلبي .

والجلوس والقعود ، والشك والريب ، والعمل والفعل ، مما يظن ترادفه ، جاءت كل كلمة في مكانها حيث لا يغني عنها غيرها ولا يسد مسدها ، ولعل الذي يوازن بين كلامه وبين كلام سابقته من أئمة اللغة يطمئن إلى ما قاله اللغويون .

٣ - السيوطي :

وقد ذكر الحافظ السيوطي - رحمه الله - هذه المسألة ، وبين حجج الفريقين ، وأحسب أن الذي يقرأ ما ذكره السيوطي يترجح لديه قول من أنكر الترادف .

ذكر السيوطي عن عز الدين بن جماعة قال : حكى الشيخ القاضي أبو بكر بن العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، منهم : ابن خالويه ، فقال : احفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو علي ، فقال : ما أحفظ إلا اسما واحداً ، وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات ، وكأن الشيخ لا يفرق بين الأسم والصفة(١) .

وحري بالدارس لكتاب الله تعالى أن تكون له هذه النظرة ذات الدقة والشمول حتى لا يطغي بعض المعاني على بعض ، ولا تخرج الكلمة من حيزها الذي ينبغي لها ألا تتعداه .

وحديثاً وجدنا من الباحثين من يتحدث عن الترادف ، محاولاً أن يعالج هذه القضية بأسلوب حديث .

٤ - الاستاذ مصطفى صادق الرافعي :

ومن هؤلاء الاستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله تعالى - فبعد أن ذكر أقوال العلماء في الترادف ، وبين أنهم اختلفوا فيه على أربعة أقوال :

- منهم : المنكرون له ، وهم كثرة من أئمة اللغة ، كإبن الأعرابي وثعلب ، وابن فارس ، فهؤلاء عدوا المترادفات اسماً ، كل منها يمتاز عن غيره ببعض الفروق .

---

(١) انظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها - للسيوطي جـ ١ ص ٤٠٥ .

- والمذهب الثاني « عد المترادفات صفات ، لما اشتهر من الأسماء ، فالسيف هو الأسم ، وما أطلق عليه بعد ذلك ، كالصارم والبتار والمهند ، فأنما هي صفات ، وهذا هو مذهب أبي علي الفارسي ، كما يقول الرافعي - رحمه الله تعالى - ، وقد تقدم لنا أن أبا علي أنكر الترادف .

- المذهب الثالث : وهو مذهب الأصوليين ، ولكنهم يخصونه بإقامه لفظ مقام لفظ آخر لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد ، كقولهم ، أصلح الفاسد ، ولم الشعث ، ورتق الفتق ، وشعب الصدع ⁽¹⁾ .

- المذهب الرابع : إثباته الترادف مطلقاً دون قيد .

وبعد أن ينقل الرافعي - رحمه الله تعالى - هذه المذاهب يقول : والصحيح من ذلك كله أن أوضاع العرب تختلف لأنهم متصرفون في اللغة لا يعرفون لها قيوداً اصطلاحية ، وما من عربي إلا وهو في حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التي يرجع إليها أصل الوضع ، لأن اللغة مفردات وضعها أفراد ، وقد كانت لهم أشياء كأنها مظاهر الطبيعة المتسلطة عليهم بمعانيها المتناقضة وصفاتها المتباينة لبلوغها الغاية في مألوفهم من اللذة والألم ، والمنفعة والمضرة ، وهذه يراها كل عربي ، ويحدث عنها ويصفها على ما يجد في نفسه من أثرها ، وعلى ما يراه من صفاتها المختلفة ، فلا جرم اختلفت الألفاظ الموضوعة لها بحسب ذلك .

ومن هذه الألفاظ ما يكون أسماء من وضع القبائل المتعددة ، ثم تسمع كل قبيلة لغة الأخرى ، فيأخذ بعضها عن بعض استطرافاً وتوسعاً في الكلام .

ومنها ما يكون صفات يترف في وضعها أفراد قبيلة ، فلا تختص بالوضع الواحد ، لما علمت من اختلاف السبب الحامل على اشتقاقها ، ثم تنزل هذه الصفات منزلة الحقائق العرفية بعد أن تكون قد فشت في الاستعمال ، وتلتحق ألفاظها بأصل اللغة ، وهذا هو القسم الأكبر من المترادفات ، كثرت عندهم اسماؤه وصفاته لما أشرنا إليه آنفاً⁽²⁾ .

---

(1) وهذا ليس من الترادف الذي نعنيه هنا ، لأن هذه عبارات ، وحديثنا عن الكلمات المفردة .

(2) تاريخ أداب العرب جـ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

٥ - الاستاذ علي الجارم :

وقد عرض لقضية الترادف الأستاذ علي الجارم ، فبعد، أن نقل آراء العلماء الأقدمين نراه يتخذ موقفاً وسطاً فهو يذكر أن المنكرين للترادف والمثبتين له مبالغون ، أما مبالغة المنكرين فتظهر في إنكارهم الترادف بين ألفاظ لا يسوغ إنكار الترادف فيها ، وأما مبالغة المثبتين ، فقد أتوا بألفاظ عدوها مترادفه وهي في واقع الأمر ليست كذلك ، ومثل لذلك بكلمة كبح وكمح .

ونحن مع الأستاذ الجارم فيما اخذه على القائلين بالترادف لأن الباء والميم يتعاقبان ومن ذلكم لازم ولازب ومكه وبكه وراكب وراكم وينبه الأستاذ الجارم في نهاية بحثه إلى أن الواجب الأول على دارسي الترادف هو القيام ببحث دقيق لمعاني الكلمات التي يظن أنها من الترادف ويقيني بأننا إذا اتبعنا هذا المنهج بدقة وموضوعية ، فإننا سنخلص إلى القول بعدم الترادف في جل كلمات اللغة إن لم يكن في كلماتها جميعها .

٦ - الدكتور إبراهيم أنيس :

ومن الذين عرضوا لهذه القضية الدكتور إبراهيم أنيس ، بدأ باستعراض آراء السابقين وخلص إلى القول بوجود الترادف ، واستدل على ذلك بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقعت منه السكين فقال لأبي هريرة ناولني السكين عدة مرات فلم يجب ، ثم قال له أبو هريرة : آلمدية تريد ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم ، وبما روى إن رجلاً من عرب الشمال ذهب إلى أحد ملوك اليمن فكان الملك فوق السطح فأطلع الرجل إليه ، فقال له الملك : ثب أي أقعد ، فوثب الرجل من عل فتكسر ، فقال الملك : ما بصاحبكم فقالوا إنه لا يعرف الحميرية .

وما مثل به الدكتور أنيس خارج عما نحن بصدده ، ولا بد من تحرير محل النزاع كما يقول علماء المناظرة ، فحديثنا عن الترادف وجودهُ وعدمه في البيئة الواحدة ، وليس في بيئات متعددة وذلك كالشك والريب مثلاً ، والقعود والجلوس ، فهذه كلمات مستعملة في لغة قريش .

ويفرق الدكتور انيس بين النظرة التاريخية والنظرة الوصفية في دراسة الترادف ، فيقول إن المنكرين للترادف قد نظروا إليه من الزاوية التاريخية حيث إن الكلمات في القديم كانت لها معان مختلفه ومن ثم لا ترادف بالمعنى الحقيقي ، أما المثبتون فقد نظروا إليه من الناحية الوصفية الخاصة بفترة معينة وفي هذه الفترة تلاشت هذه الفروق في المعاني بين الكلمات ، وعليه فليس هناك ما يسمى الترادف .

ويذكر الدكتور انيس إن بعض العرب أوردوا أمثلة من الترادف هي في الواقع وحقيقة الأمر ليست منه في شيء ، ومثل لذلك بما نقلناه عن ا لأستاذ علي الجارم .

٧ - الدكتور رمضان عبد التواب :

ومن المحدثين الذين عرضوا لقضية الترادف كذلك ، الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه : (فصول في فقه اللغة) فلقد عقد فصلاً خاصاً بالترادف ، ذكر فيه مالا قته هذه القضية من أقوال العلماء ، ما بين مقل ومكثر ، ومقر ومنكر ، كما تحدث عن أهم أسباب الترادف في اللغة ، والتي نوجزها فيما يلي :-

١ - تعددت أسماء الشيء الواحد في اللهجات المختلفة .

٢ - أن يكون للشيء الواحد في الأصل اسم ، ثم يوصف بصفات باختلاف خصائص ذلك الشيء ، وإذا بتلك الصفات تستخدم في يوم ما استخدام الشيء ، وينسى ما فيها من الوصف يتناساه المتحدث باللغة .

٣ - التطور اللغوي في اللفظة الواحدة .

٤ - الاستعارة من اللغات الأجنبية .

وهذه الأسباب التي ذكرها الدكتور رمضان لا نشك في أنها من أقوى الحجج لأولئك الذين ينكرون الترادف بمعناه الدقيق بين الكلمات العربية ، وبخاصة إذا كانت هذه الكلمات من لغة واحدة ، ولقد أحسن الدكتور رمضان وهو ينقل عن الأئمة شروطاً إذا تحققت أمكن القول بالترادف وهي :-

١ - الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً .

٢ - الاتحاد في البيئة اللغوية .
٣ - الاتحاد في العصر .
٤ - ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي آخر(١) .

وهيهات أن تتحقق هذه الشروط ، ويقينا أن تحقق هذه الشروط صعب إن لم يكن متعسراً .

ولا بد من ملحوظة أسجلها هنا على ما ذهب إليه الدكتور رمضان من أن القائلين بالترادف كانوا يتحمسون لهذا القول ، ويدافعون عنه في بعض كتبهم على حين كانوا يتخلون عنه في كتب أخرى ، ويضرب لذلك مثلاً بأبي هلال صاحب كتاب (الفروق) الذي أشرت إليه آنفاً ، فبينما هو يشدد بحزم على عدم وجود الترادف في كتاب ؟ الفروق) يعترف به في مكان آخر ، يقول الدكتور : « ومن أن أبا هلال العسكري يبالغ في هذا الكتاب في منع الترادف ، ويحاول جاهداً البحث عن الفروق بين الألفاظ المترادفة فأنه في كتابين آخرين له ينسى هذا المبدأ ، ويذكر الألفاظ المترادفة بلا اعتراض عليها أو محاولة للتفريق بينهما(٢) .

والكتابان اللذان يقصدهما الكاتب ، كتاب ؟ التخليص في معرفة اسماء الأشياء) وكتاب (المعجم في بقية الأشياء) ، وما نظن الأمر كذلك .

إن أبا هلال بني نظريته في إنكار الترادف على أسس تحدث عنها في كتاب الفروق ، ودافع عنها بقوة ، ولذا فإن ما ذكره في كتابيه اللذين استنتج منها الكاتب نسياناً لنظريته أو عدو له عنها غير مسلم له ، لأن طبيعة البحث في الكتابين المذكورين لا تتطلب ولا تستدعى أن يبين الفروق الدقيقة بين الكلمات ، ولعل عنوان الكتابين شاهد على ذلك .

---

(١) فصول في فقه اللغة العربية - الدكتور رمضان عبد التواب ، أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب - جامعة عين شمس - الطبعة الثانية - مكتبة الخانجي بالقاهرة - ص ٣١٦ ، وص ٣١٨ .

(٢) فصول في فقه العربية ص ٣١٥ ، ذهب إلى هذا الرأي تبعاً للدكتور عبد التواب صاحب (رواية اللغة) الدكتور عبد الحميد الشلقاني ص ٢٢٥ .

والذي نحاول أن نخلص إليه أن الذين أنكروا الترادف في العربية بعامة ، والقرآن بخاصة ، يقيمون من الأدلة ما يقنع العقل ، ونحن على يقين من أن وجـود الترادف في كتاب الله تعالى أمر غير منسجم مع قدسية القرآن وأحكامه وروعة بيانه ، ودقه معانيه ، وما روى عن المازني من أنه سمع أبا سوار الغنوي يقرأ (وإذ قتلتم نسمة فادارأتم فيها) فقال له المازني : (وإذا قتلتم نفساً) فقال الغنوي : النسمة والنفس سواء(١) أمر غير مقبول ، ذلك لأنه لا يجوز لأحد أن يغير في ألفاظ القرآن ، كما يحلو له ، ولا يقبل ذلك من مؤمن فضلاً عن أن يكون عارفاً بكلام العرب ، ونحن ندرك ما بين النفس والنسمة من بون .

٨ - الدكتوره عائشة عبد الرحمن :

أما الدكتورة بنت الشاطيء فبعد أن نقلت آراء الأقدمين واختلافهم في هذه القضية تقول : « وظلت القضية فيما أعلم معلقة لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي حتى بعد أن اتصلت دراساتنا اللغوية الحديثة بجديد البحوث في علوم اللغة والصوت والاجتماع .

وإن كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراج في العصور المتأخرة ، ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في فقه اللغه وعلم الاجتماع اللغوي أذكر منهم : الدكتور على عبد الواحد الذي نشر في مجلة الثقافة سنة ١٩٦٣ م مقالاً في مزايا لغتنا العربية ، التي أنفردت بشرف نزول الوحي بها ، فكان مما عدد من مزايا أنها تستطيع لثرائها أن تؤدي المعنى الواحد بعشرات الألفاظ .

والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس ، قطع في كتابه (دلالات الألفاظ) بوجود الترادف في العربية ، فلم يلمح فرقاً أي فرق ، بين أن تقول مثلاً : « لم يسمع وفي أذنية صمم ، وفي أذنيه وقره ، وذكر الآية الكريمة شاهداً :

---

(١) ص ٣١٦ ، وأمالي القالي (ط القاهرة ١٩٥٤م) ٢/٧٦ ، وعنها في المزهر ١/١٤٣ ، وكذلك الأضداد لأبن الأنباري ص ٧ ، والمزهر ١/٣٩٩ .

(وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً)(١) [لقمان : ٧] .

وإلى عهد قريب كانت قضية الترادف من بين ما شغل به المجمع اللغوي في القاهرة وقد اقترح أحد السادة الأعضاء ، أن نتخفف من ثقل المترادفات فنصنف معجماً لألفاظ العربية ، يستبعد في المعنى الواحد ما زاد على لفظ واحد يختاره المجمعون في حشد الألفاظ المترادفة(٢) .

وهي تحسن صنعاً ، وتصب كبد الحقيقة إذ تبين أن القرآن الكريم ينبغي أن يكون لنا المرجع في ذلك ليحسم لنا الخلاف في هذه القضية التي كثر فيها الخلاف وطال .

ومن خلال تجوالنا يظهر لنا أن أقوى ما يستند إليه القائلون بالترادف أمران أثنان : وجود لغات مختلفة في الكلمة الواحدة ، كأن تضع إحدى لفظة (سكين) والأخرى : لفظة ؟ مدية) ، وهذا ما يروي عن أبي هريرة : حينما قدم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مسلماً ، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم - : (أعطني السكين فلم يعرف ما السكين ؛ .

---

(١) والحق أن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا «لم يسمع» وبين «في أذنيه وقر» ، وفي كتاب الله تعالى آيتان ذكرت إحداهما ، الجملتان معاً «كان له يسمعها كأن في أذنيه وقراً» (لقمان : ٧) واكتفت الثانية بذكر الجملة الأولى «يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها» ، صحيح أن الجملة الثانية جاءت تأكيداً للأولى ، ولذا لم يأت بينهما حرف العطف ، وهي مما استشهد به الشيخ عبد القاهر في موضوع الفصل والوصل ، ولكن ليس معنى التأكيد الخلو من معنى جديد ، فقد يكون عدم السماع لأكثر من علة ، أما الوقر في الأذنين ، فهو تنصيص على علة معينة ، لذا فنحن لسنا مع القول بترادف العبارتين ، ونستدل لذلك بسياق كل من الآيتين : فسياق آية لقمان كان حديثاً عن الذي يشتري لهو الحديث ليضل الناس ، فجريمته مزدوجة ضلال وإضلال ، لكن آية الجاثية جاءت في شأن الذي يسمع الآيات ويعرض عنها ، فضرره مقتصر على نفسه ، وهذه من أسرار الكتاب الخالد ، وحكمته البيانيه والاجتماعية .

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) - أستاذ الدراسات القرآنية بدار الحديث وكلية الشريعة / جامعة القرويين : المغرب - الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق - دار المعارف بمصر - ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

والأمر الثاني : أن العرب وضعوا للمعنى الواحد لفظين وأكثر ، ليدلوا على اتساع في لغتهم .

أما الحجة الأولى : فنحن لا ننازع فيها أحداً أبداً ، وهذا ما يشهد به الواقع ، فنحن نرى اليوم مسميات كثيرة لشيء واحد اختلف باختلاف الأقطار حتى باختلاف البلاد من قطر واحد لكن الذي ننازع فيه هو الأمر الثاني .

وعلى كل حال فإن كتاب الله تعالى هو الفيصل في ذلك ، والمتدبر للألفاظ القرآنية لا يسعه إلا أن ينكر القول بالترادف ، فالشك والريب : كلمتان مستعملتان في كتاب الله تعالى ، ولا نستطيع أن نجزم بأنهما من لغتين اثنتين ، ومع ذلك فنحن ننكر أن تكونا قد وضعتا للدلالة على اتساع العربية ، ، إنما لكل كلمة مدلولها الخاص بها .

وتعجبني كلمة ابن الأعرابي :

كل حرفين اوقعتهما العرب على معنى واحد منهما ، ليس في صاحبه ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله)⁽¹⁾ .

ومن الحق أن أقرر هنا أن إثارة قضية الترادف بين العلماء كان لها حظ وافر في شأن الإعجاز القرآني ، فلقد كان تحديد مدلول الكلمات من أعظم روافد الإعجاز ، وذلك يظهر في دقة الفروق بين الكلمات ، وكيف أن كل كلمة انما استعملت في مكانها الخاص بها ، نلحظ ذلك في حديث العلماء عن الفروق بين هلم وتعال ، والخشية والخوف ، والقعود والجلوس ، والعمل والفعل ، والزوج والمرأة ، والفرض والكتب ، والقرآن والكتاب ، وغير ذلك كثير مما عد من المترادفات : وهي من أولى وأول ما يجب أن توجه إليه جهود العلماء لإعطاء معاني خاصة تنسجم مع السياقات القرآنية .

وهكذا نجد أن البحث في مدلول الألفاظ ، كان المرجع فيه القرآن الكريم ، وكانت الغاية منه القرآن الكريم كذلك ، وهي بحق أبحاث غنية ثرية ، كانت ذات أثر في كثير من الموضوعات العلمية كالفقه والأصول ، والأدبية

---

(١) فصول في فقه اللغة ص ٣١٣ .

كالنقد والبلاغة ، وكان لذلك كله آثار طيبة في محاولة الفهم الدقيق لكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن المفيد أن نتساءل في نهاية هذا الفصل ، أي نوعي المشترك كان له الأثر الأكبر في إثراء الدراسات القرآنية بعامة ، ودراسات الإعجاز بخاصة ، ومع يقيننا في أن كلا من النوعين أسهم في هذه الدراسات ، فإننا نرى أن المشترك المعنوي - الترادف - كان له النصيب الأوفر في هذه الدراسات ، ذلك لأن تحديد المعاني الدقيقة للكلمات التي يظن أنها مترادفة أبرز لنا كثيراً من مكنونات الموضوعات القرآنية .

والمتأمل لكتاب الله تعالى يجد من ذلك ما يختلف الأذهان ، ويختلب الآذان فكلمتا الشك والريب استعملت كل منهما في مواضع ، ونحن إذا أنعمنا النظر في الآيات التي استعملت فيها كل من الشك والريب نجد أن كلا منهما لا تصلح مكان الآخرى ، فقوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه » لا تصلح فيه كلمة الشك ، وقوله تعالى « فإن كنت شك مما أنزلبنا إليك » لا تصلح فيه كلمة الريب ، ذلك لأن الشك تردد النفس بين أمرين ، أما الريب ، فإن فيه زيادة على هذا التردد فهو تردد مع ريبة وتهمة .

كذلك كلمة العمل والفعل ، والخوف والحشية ، والكتاب والقرآن ، وغير ذلك وهو كثير مما عد مترادفاً ، تدلنا النظرة الفاحصة الواعية على أن كل كلمة إنما جاءت مستقرة في مكانها .

ويطول بنا المقام إذا اردنا أن نبين هذه المواضع جميعها ، لذلك كان لهذا النوع أثره في الدراسات القرآنية .

أما المشترك اللفظي فغالباً ما يكون مع الكلمة قرينة تبين المراد منها أو ترجح هذا المراد ، ولقد ذكرنا من قبل كلمة مسحر ، وعرفنا أن لها معنيين ، وجدنا أن هناك مرجحات تاريخية وبلاغية لبيان المعنى المراد من كل منهما .

خلاصة القول ، موضوع المشترك في الدراسات اللغوية كان للكلمات القرآنية الآثر في توجيها ، بل في تطور هذه الدراسات اللغوية كذلك .

الفصل الثالث

اللفظة من حيث الصيغة : ،

كان هذا الجانب من الدراسات متزامناً مع الجوانب التي ذكرناها من قبل ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قضية حرية بالتقدير ، جديرة بالتسجيل ، وهي إن أئمتنا اللغويين لم يكونوا من ذوى النظرة الضيقة في مباحثهم ، وإنما كانت نظرتهم شمولية وهم يقفون أمام ما يبحثون ، فلم يشغلهم البحث في غرابة اللفظة ، أو كونها نادرة عن مدلول اللفظة غريبة كانت أم غير غريبة ، نادرة كانت أم غير نادرة ، ولم يكن هذا أو ذلك ليشغلهم عن الصيغ المتعددة للفظة الواحدة ، فقد تكون للأسماء صيغ كثيرة ، كالمصدر والصفة والتفضيل ، وكذلك الأفعال ، فهل مدلول هذه الصيغ واحد ؟ لقد ذكر العلماء مثل هذا .

فهذا أبو عبيدة في مجاز القرآن يحدثنا عن بعض هذه الصيغ فيقول عند قوله سبحانه ؟ فأمطر علينا حجارة من السماء) [الانفال : ٣٢] مجازة : « أن كل شيء من العذاب فهو (أمطرت) بالألف ، وإن كان من الرحمة فهو ؟ مطرت)(1) .

فهو يفرق إذن بين صيغتي ؟ فعل) و (أفعل) .

ثم رأينا فيما بعد كتبا تؤلف في صيغتي ؟ فعلت) و (أفعلت) هل هما شيء واحد ، كثيرون الذين كتبوا في هاتين الصيغتين منهم : الأصمعي ، وأبو زيد وأبو حاتم السجستاني .

ولقد كان الخلاف بين العلماء في هاتين الصيغتين ينم عن معرفة بلغات العرب ، وعن التزام بما جاء في كتاب الله تعالى ، يدلنا على ذلك ما كان بين الأصمعي وأبي زيد من خلاف في هاتين الصيغتين .

فهذه مادة الكاف والنون ، تأتي منها صيغتان للماضي ؟ كن) ، ؟ أكن) فكان الأصمعي يرى أن لكل من هاتين الصيغتين معنى يختلف من الأخرى .

---

(١) مجاز القرآن جـ١ ص ٢٤٥ .

فصيغة ؟ كن) بدون همزة تدل على الحفظ والصون ، أما صيغة (أكن) فتدل على الأخفاء والستر[١] .

لكن أبا زيد - وهو معاصر الأصمعي ونده - كان يرى أنهما تأتيان لمعنى واحد ، كل ما في الأمر أن أحداهما : لغة الحجاز ، والأخرى : لغة نجد .

أما الأصمعي فكانت حجته مستمدة من كتاب الله تعالى ، فلقد جاء في التنزيل في سورة الواقعة : [٢٢ - ٢٣) (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) ، ومعناه : المصون ومكنون : اسم مفعول للفعل الثلاثي (كن) ، أما الصيغة الثانية : فقد جاءت في قوله تعالى في سورة البقرة : ٢٣٥ (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم) ولا شك أن معناه هنا : أخفيتم .

ومن ذلك سكت وأسكت ، فـ (سكت القوم) صمتوا ، و (أسكت القوم) أطرقوا ، ويستدل الأصمعي لذلك بقوله سبحانه « ولما سكت عن موسى الغضب » [ ] وبما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم فعن عمر قال : أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر » قال حذيفة « فأسكت القوم »[٢] .

ومن ذلك برق ورعد ، وأبرق وأرعد ، فلقد ذهب الأصمعي إلى أن أبرق وأرعد أينما تكون في أمر البرق والرعد ، أما إذا قصد التهديد فيقال برق ورعد[٣] ومن ذلك هوى وأهوى .

ومن الكلمات القرآنية التي كان للعلماء فيها فسحة من القول سقى وأسقى ، ولقد وردت الصيغتان في كتاب الله تبارك وتعالى ، ورد الثلاثي في مثل قوله سبحانه « والذي هو يطعمني ويسقين » ، وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .

ولم تقرأ هاتان الآيتان الكريمتان إلا بهذه الصيغة ، وورد رباعياً في قوله

---

[١] وقد تقدم لنا تفريقه بين حزن وأحزن ,

[٢] شرح صحيح مسلم للدعبي (٢٥١/١) .

[٣] أبو علي القالي $ الأمالي (٩٦/١) .

سبحانه «ليحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسا كثيراً » وليس في هذه الآية الكريمة قراءة أخري .

أما قوله سبحانه « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه » في سورة النحل « ونسقيكم مما في بطونها » في سورة المؤمنون ففيهما قراءتان اثنتان متواترتان ، (نسقيكم) بضم النون من أسقى الرباعي ، و (نسقيكم) بفتحها من سقي الثلاثي .

وتلك يعلم الله غاية الدقة ، ونهاية الروعة ، بيان ذلك أن سقي وأسقى قيل فيهما ما قيل فيما يشبههما من هاتين الصيغتين ، فعلى حين ذهب بعضهم إلى أن الصيغتين معناهما واحد ، ذهب الأكثرون إلى أن بينهما فرقاً ، فسقى لما يشربه الإنسان في فمه ، وأسقاه ، أي جعله شراباً له ، وقريب من هذا قول من قال إن سقي بمعنى أروي وأسقى أي جعل له سقياً يكون بها الخصب والسعة ، ونقل السيوطي أن سقي يكون لما ليس فيه كلفة وغلبة⁽¹⁾ .

وعلى ضوء هذه الفروق الدقيقة ، ندرك سر المعنى الذي من أجله تعددت القراءات ، فورد بعضها بصيغة الثلاثي وحده ، وبعضها الرباعي ، وأخرى بالصيغتين معاً ، وهذا شاهد صدق على تواتر هذه القراءات .

وقريب من هذا ما ذكروه في صيغة (فعل) و ؟ أفعل ﴾ مستدلين لذلك بما جاء في كتاب الله تعالى من فعلي (نزل) و (أنزل) إنما تستعمل لما نزل جملة واحدة ، وأما (نزل) فإنما تستعمل لما كان متفرقاً ، واستدلوا لهذا بمثل قوله تعالى (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل⁽²⁾) [آل عمران : ١ - ٣] .

ومن هذا القبيل كذلك اختلاف صيغ المبالغة حيث تعطي كل صيغة معنى خاصاً بها ، قال أبو هلال العسكري :

---

(١) السيوطي / جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) الاتقان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة العامة للكتاب (١٩٧٥م) (جـ٢/٣٦٥) .

(٢) وقد نازع في هذا كثير من العلماء .

« وقال المحققون من أهل العربية لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد ، وقالوا : فإذا كان الرجل عدة للشيء قيل فيه (مفعل) مثل : مرحم ومحرب ، وإذا كان قوياً على الفعل قيل : فعول ، مثل : صبور وشكور ، وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت ، قيل : فعال مثل : علام وصبار ، وإذا كان ذلك عادة له قيل : مفعال مثل : معوان ومعطاء ومهداة ، ومن لا يتحقق المعاني يظن إن ذلك كان يفيد المبالغة فقط ، وليس الأمر كذلك بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرهاناها(١) .

واختلاف صيغ المصادر ، فلقد أوصل سيبويه(٢) صيغ هذه المصادر إلى نيف وثلاثين وكذلك ربما يكون للفعل أكثر من مصدر ، لكن كل مصدر يستعمل في وضع خاص ، وشأن خاص .

ومن هذا النوع : اختلاف القراءات في كلمة واحدة مثل قوله سبحانه (وإنا لجميع حذرون) الشعراء : ٥٦ ، وفي قراءة ؟ حاذرون) ، فالحذر : المتيقظ ، والحاذر : القوى في السلاح ، والذي يجدد حذره ، ومن له إلمام بالقراءات فسيمتع نفسه بكثير من هذا .

ولقد ألفت كتب كثيرة لهذه الصيغ ، فلكل من الأخفش(٣) والأصمعي كتاب في (الاشتقاق) ، ولأبي حاتم (اشتقاق الاسماء) ولهذين الأخيرين كتاب في (المذكر والمؤنث) وللنضر بن شميل(٤) كتاب (المصادر) .

وهكذا نجد إن دراسة الصيغ قد استوعبها العلماء استيعاباً تاماً ، وفي علمي الصرف والاشتقاق خير دليل على ذلك .

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٣ .

(٢) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ، أبو بشر الملقب : سيبلويه (١٤٨ - ١٨٠هـ - ٧٦٥ - ٧٩٦م) أمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو .

(٣) سعيد بن مسعده المجاشعي بالولاء ، البلخي ، ثم البصري ، أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط ، (٣١٥هـ / ٣٨٠م) نحوي ، عالم باللغة والآدب .

(٤) النضر بن شميل بن خرشه بن يزيد المازنتي ، التميمي ، أبو الحسن ، (١٢٢ ٢٠٣هـ) (٧٤٠ - ٨١٩م) أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث ، وفقه اللغة .

ولا يظن أحد أن جهود اللغويين كانت منحصرة فيما ذكرناه ، وأشرنا إليه من قبل ، فالذي ذكرناه ، كان خاصاً باللفظة المفردة ، ولعلماء اللغة جهود لا تقف عند اللفظة القرآنية ، بل تتعداها إلى التراكيب والجمل ، كبحوثهم ، وكتبهم في معاني القرآن وما يتفرع عنها من إعراب ، وهي كتب كثيرة تجل على الحصر(١) .

ولقد لاحظنا مما سبق أن هذه المباحث كان جل ما تسعى إليه صحة الكلمة من حيث المعنى والاستعمال والصيغة ، وتلك لعمر الحق هي أهم الجوانب . وهناك جوانب لغوية يرجع الفضل فيها للكلمة القرآنية في المفرادات اللغوية ، غير ما ذكرت ، وجدت أنها سيطول بها البحث وتتسع مساحته ، فاكتفيت بما ذكـرت سائـلاً الله أن ينفع به ويأجر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه ومصطفاه ومن اجتبَاه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

---

(١) فمنهـا : معـاني القرآن للفراء (٢٠٧هـ) والأخفش والزجاج (ت ٣١٨هـ) ولابن درستويه (ت ٣٤٧هـ) كتاب فيه بين الفراء والأخفش .